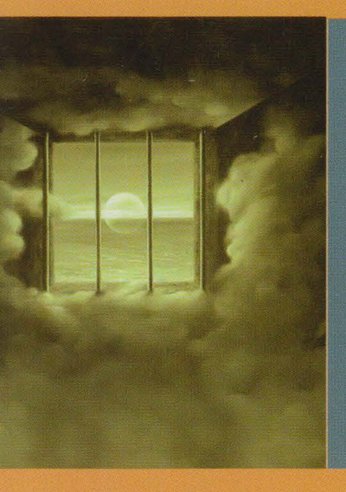
سلسلة الأخلاق والعرفان

5



التجلّي

في كشف الأنوار الإلهيّة والسّير في معرفة النفس

الجزء الثاني

كريم محمود حقيقي





مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع ايمان ابي طالب في كفة ميزان وايمان هذا الخلق
في الكفة الاخرى لرجح ايمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

التجلي

في كشف الأنوار الإلهية

معرفة النفس و الرقي


بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلة الأخلاق والعرفان

(٥)

التجلي

الطريق إلى كشف الأنوار الإلهية و السير في آفاق معرفة الله

(الجزء الثاني)

تأليف:

كريم محمود حقيقي

ترجمة:

زهراء يگانه



ابداع للنشر

الطبعة الأولى
١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م



للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف: ٠٣/٢٥٧٩٨٤ ـ فاكس: ٠١/٥٥٣٤٥٦ ـ ص.ب: ٢٥/٣٥٥ ـ غبيري ـ بيروت

Daralkatebalarabi@hotmail.com

الخطوة الثانية
(على طريق تجلي الأنوار الإلهية)

السير في الأنفس

«المقدمة»

«معرفة النفس الإنسانية»

كان لنا حتى الآن، وعلى مر صفحات هذه السلسلة، محاولة للسير بخطى حكيمة في الطريق إلى الله، حيث أعددنا العدة لهذه الرحلة في الحلقة الأولى منها، خلال خطوتين: «التخلي» وتعرفنا عندها على التدنسات لننأى عنها الى الأبد بعد خوضنا الخطوة الثانية، أي «التزكي». ثم أردنا من مبحث «التحلي» -والذي شمل عرضنا له جزئين من هذه السلسلة - التزين بالصفات الحميدة استعداداً للقاء الحبيب..

هكذا تقدمنا خطوة فخطوة حتى وصلنا منزل «التجلي». فأتينا، في الحلقة الرابعة، بكلام حول تجلياته عز وجل في الآفاق. وها نحن في هذه الحلقة بصدد الكشف عن تجلياته في مكنونات النفس الإنسانية:

﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم

يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾.

الآية تحدد كما اتضح لنا حتى الآن مسالك ثلاثة للوصول إلى مقام اليقين، أولها السير في الآفاق. وإني أراك ولله الحمد أمسكت بعد اجتيازك هذه المرحلة بزمام أمورك استعداداً لخوض مرحلة معرفة النفس. ولكني أنبهك مسبقاً أن لا تتوقع بلوغ نهاية هذا المسلك بسهولة. فنفسك أعظم من المجرات وأعمق من المحيطات. هذا ما سوف تؤيدني فيه تصديقاً بعد مرافقتي على الصفحات القادمة. ولا أنسى أن أخبرك أن هذه المرحلة ممتعة للغاية لأنك بتقدمك إلى الأمام سوف تزداد تعظيماً لنفسك وغوراً في سر ارتباطك بالمحبوب ومئات الأمور الأخرى إن شاء الله.

«أهمية معرفة النفس من وجهة نظر القرآن»

﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم﴾

في الآية محل بحثنا يحدد الحق تعالى النفس الإنسانية باعتبارها إحدى تجليات آياته قائلاً: ﴿سنريهم (عن قريب) آياتنا.. في أنفسهم﴾. ولا تذهبن بك التصورات بأن تقدم ذكر الآفاق في هذه الآية على الأنفس كان من جانب تقدم أهميتها بل لأنها الخطوة الأولى وهذه الخطوة الثانية، كأن يقال لطفل يقبل على الالتحاق بالمدرسة: لك أن تكسب العلم في مراحل الابتدائية والمتوسطة والثانوية والجامعية. إنه بتقدمه في الدراسة سوف يجد دائرة أكثر اتساعاً مما كان يخيل إليه.

ما يهم سالك الطريق إلى الله، هو أن يعثر على موطىء قدمه.. فمتى ما ثَبَّتَّ قدميك في مثل هذا الموقع، سواء تحقق ذلك في سيرك في أرجاء الطبيعة أو في نفسك، سوف تزدهر عندك تدريجياً براعم حب الله. سوف تتنبه لحسن محبوب رعاك طوال الطريق. عندئذ لا بد أن تحول خطاك نحو مسلك آخر.

عسى أن تلاطف اشعاعات الجمال روحك حتى تحلق نحو السماء تحليقاً محمدياً وتهديك السبيل إليه متناغماً طرباً.

يقول تعالى في مجال آخر:-

﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً...﴾.[1]

إلى هاهنا تمحورت جميع التحولات حول تطور أحاديات الخلايا إلى موجود متعدد الخلايا، وفيما يخص تفاعل وتغير المواد الكيميائية في داخل جسم الإنسان. ثم أمعن التفكير في أسلوبه التلويحي وهو يقول:-

﴿... ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾.[2]

إنه يسمي هذا الخلق: نفحة الروح الإلهية في هذا الهيكل الطيني. حيث يقول تعالى:-

﴿فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾.[3]

هكذا تتنبه أن الغاية المنظورة في خلق الإنسان هي هذا المشهد الأخير بالتحديد. أي أن جميع المقدمات والتمهيدات السابقة كانت لأجل تحقيق هذه النفخة وكأن مئات الأدوات عبئت وتضافرت أيادٍ

١- سورة المؤمنون، الآيات ١٢ ـ ١٤.

٢- سورة المؤمنون، الآية ١٤.

٣-سورة الحجر، الآية ٢٩.

مختلفة لتقيم قصراً لسلطان. ولما فرغوا من تشييده قدم إليه السلطان مبجّلاً فصار قبلة تستقبلها الملائكة في سجودها، حيث يقول أحد العرفاء:-

«سبحاني سبحاني ما أعظم شأني».

إنه ليس مدحاً للذات بل مدحاً لله. وعلى خلق هذا المخلوق يطري الله على نفسه ويبارك فيها. وأنت لا يحق لك استصغار هذا الجلال. فمعرفة النفس كمعرفة الله طريقها يمتد إلى ما لا نهاية ولكنه كالذهب الخالص لو تظفر بقليل منه تأمن لنفسك ثروة كبرى. ولله في نهاية قوله حول هذه النفخة إشارة وتنويه آخر حيث جاء في سورة الإسراء:-

﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾.[١]

الموضوع يتكرر.. فالحديث في هذا المجال أيضاً يدور حول عظمة روحك. فمع تطور بني الانسان منذ نزول الوحي، إلا أنه تعذر على الإنسان كشف أسرار سجل روحه ونفسه إلا وريقات محدودة منها مما يبين أبدية حكومة القرآن.

فيما فرغنا منه من حلقات، تحاورنا حول عالم الخلق وقد قال الله عز وجل بأن الروح ليس من عالم الخلق بل من عالم الأمر المتجرد عن المادة والزمان. وبالطبع معلوماتنا حول هذا العالم هي الأخرى ما

١- سورة الإسراء، الآية ٨٥.

زالت ضئيلة جداً. وقد أطلق عليه عالم الأمر لأن ايجاده في غنى عن الزمان (مثلما تصنع أنت الكلام في حنجرتك) خلافاً لعالم الخلق، فللزمان أثر في تسيير شؤونه وحدوث وقائعها لأنها تتسم بالتدرج، كما في خلق الجسم بحسب آيات سورة المؤمنون، والتي مرَّت بنا قبل قليل.

استمع لأشارة أخرى تنبهك إلى أن التأمل لأجل معرفة النفس والاهتمام بتربية الذات من أهم الأمور. فالسالك الذي يطمح أن يرى الجميع سالكين إلى الله متولهين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابد له من أن يبدأ أولاً من نفسه:

﴿يا أيها الذين آمنوا، عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم، إلى الله مرجعكم جميعاً، فينبئكم بما كنتم تعملون﴾.[١]

تتضمن هذه الآية إشارات عدة:

١ - التأكيد على أهمية مراقبة النفس وتربيتها وضرورة التفات الشخص أولاً إلى نفسه. فمسؤولية كل شخص ملقاة على عاتقه. فقبل التفكير ببناء الآخرين لابد من بناء النفس. فكيف لمن لم يبنِ نفسه أن يؤثر في الآخرين؟ إن اجتزت هذه المرحلة حتى نهايتها، عندئذ تغدو حتى نظراتك مدعاة بناء بني الإنسان. وكما قال الشاعر حافظ الشيرازي:

١- سورة المائدة، الآية ١٠٥.

آنـــان كـه خـاك را بـنظر كـيميا كـنند
آيا بود كه گوشهٔ چشمى بما كـنند؟[١]

ويـريد الشـاعر المـوفقين فـي بـناء أنـفسهم. إن رأيت الآخـرين يعرضون عن هذا المسلك، لا تؤنب نفسك. إمضِ في دربك فقد وعد الله أمثالك بقوله:-

﴿لا يضركم من ضل﴾.

ثم عاد للقول: ﴿إلى الله مرجعكم جميعاً﴾، فمتى ما رحلت عن هذه الدنيا تكون أمورك بيدي أنا. فما بالك حتى وإن افنيت العلاقات بينك وبين المقربين إليك ومعارفك؟ فسوف تتلقى أنت ويتلقون هم أيـضاً رسالة أعمالكم معروضة أمامكم في ذلك الموعد، ويعلم كـل مـنكم مآله. ولكن جميع الإشارات تنوه إلى أن المطلوب من كل شخص هو تولي شأن نفسه أولاً، فكيف له أن يتحمل أعباء التزكية والتربية قبل أن يعرف نفسه أولاً، وقبل ان يميز خيره من شره؟ فهذه المرآة يجب صقلها مما يكدر صفوها قبل التفكير بتزيينها.

ولكن حذارِ أن تتوهم أنك غير مـتحكم بـنفسك ويـتعذر عـليك معرفتها، وبالتالي بناؤها. فقد قال تعالى:-

﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره﴾.[٢]

١- معناه:-

«أولئك الذين تحول نظراتهم التراب إكسيراً، هل لنا منهم نظرة عابرة؟».

٢- سورة القيامة، الآيتان ١٤ و١٥.

إنه، وبأسلوب تأكيدي، ينوّه إلى أنك واعٍ بأحوال نفسك، تتفهم محاسنها ومساوئها، وتعرف صالحها وضررها. أحياناً تلقى من نفسك العتاب والتوبيخ على ما يصدر منك من خيانة. كم مرة وبّخت نفسك حتى الآن؟ وكم دفعة في حياتك أخذت على نفسك لسهواتها وهفواتها؟ إنه حديث نفسك معك فإنه موجود مقدس أقسم الله تعالى به:-

﴿ولا أقسم بالنفس اللوامة﴾.

في مثل هذه المنزلة ترقى إلى مقام ارتباط نفسك بربها فتتلقى الايحاء والالهام من جانب الله بما فيه خيرك وشرك. ولكنك قد تسيء استغلال ما وهبك الله فتلقي بهذه النعمة في غياهب الضلال:

﴿ونفس وما سواها فالهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها﴾.[1]

إنها آيات جديرة بفائض من الاهتمام والتركيز.. فلن تجد في أي موقع من القرآن تكرار القسم بمثل ما جاء في بداية سورة الشمس وتنبه لما قاله الباريء تعالى بعد كل هذا القسم، مما يجيز لنا القول بالنظر إلى عدد عبارات القسم في هذه الآية، بأن الوعد الإلهي الأكثر توكيداً في آياته هو أن من عرف نفسه وزكاها ينال الفلاح لا محالة. ونصيب كل من يهمل معرفتها، الخيبة والخسران. وحتى لو اقتصر وعده على ما جاء في هذه السورة فإنه حري بالإنسان أن يذعر لهذا

١- سورة الشمس، الآيات ٧ - ١٠.

الكلام ويترك جميع الأمور ويتناسى جـميع الطـلبات والطـموحات. لينشغل بأمر نفسه وتزكيتها وتربيتها، مستلهماً الإسـناد مـن فـطرته، سائراً نحو الفلاح. ولتعلمن أن نفسك كلما ازداد حظها من اهـتمامك بتزكيتها من الشوائب ازداد صوت هذا الالهام وضـوحاً فـي مسـامع روحك حتى يؤول أمرك إلى الاستغناء عن أذني رأسك والتركيز فـي آذان روحك.

الآن وقد اطلعت على قصة ارتباطك مـع حـضرة رب العـزة، ألا ينتابك الخجل أن تستغل ما ائتمنك مـن قـدراتك لتأتـي بـمثل هـذه الخيانات في حضرته؟ وهو ليس قائماً أمامنا فقط بل معنا أينما كنا يتابع صلافتنا دوماً ونحن نخلع ثوب الحياء في حضوره؟ إن تنكرت لذلك اصغ إلى هذه الآية:-

﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت وجعلوا الله شركاء﴾.[١]

كل ما تؤتى به فمنه وما تكسبه تكسبه في حضرته، تحيا بحياته وأنفاسك تسيّر بقدرته. ومع ذلك نظرك توجهه إلى غيره؟ قدومك كان لأجل تزكية نفسك، لتكسب المعارف، خلقت لتتعرف عليه. واحسرتاه عليك لقد أبليت الدار والديار ولوثت القلب هاهنا! عرفت كل شيء إلا الله. تركت معرفته وراء ظهرك! تعرفت على كل من كان عنك غريباً.. وتصورته غريباً من كان للروح أنيساً وإليها قريباً.

إذاً، احرص أن لا تنشغل عن الله بما سوى الله، وأن تنفق عمرك

١- سورة الرعد، الآية ٣٣.

في الإدخار لآخرتك لا في اكتساب ذخائر دنياك المتروكة يوماً، وأن تلقي ليلياً قبل الخلود إلى النوم نظرة إلى سجل أعمال يومك، لتقيّم ما أضفته إلى رصيدك باستهلاك يوم من عمرك. هل انقضى بضررك أم بنفعك؟ هذا ما أمرك به ربك:-

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد﴾.[١]

فإن سلبت نفسك فرصة هذه الصحوة وأهدرت العمر بين غفلة وكبوة، فإنك يوم ترد عليه وتسقط أمام عينيك الحجب تنهال ضرباً على رأسك كما قال تعالى:-

﴿أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله﴾.[٢]

ولتعلمن أنك لو لم تتحكم بزمام نفسك بقبضة إرادتك، فإن هذا الجواد الحرون سوف يمنع روحك، بما يثيره من تراب في أجوائها، أن تستشعر هذه النفخة، ويلقي بك إلى حيث العذاب الأبدي وحرمانك من لقيا الحبيب ووصاله السرمدي.

﴿ما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾.[٣]

وقال زيادة في الحث على معرفة النفس:- ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾.[٤]

١- سورة الحشر، الآية ١٨.

٢- سورة الزمر، الآية ٥٦.

٣- سورة النساء، الآية ٧٩.

٤- سورة الذاريات، الآية ٢١.

النفس وأهمية معرفتها
في
الأحاديث ومآثر الأقاويل

نستوحي من أحاديث الائمة عليهم السلام أن الروح موجود أمثل قد لا يكون له ند ونظير بين مخلوقات الله عز وجل.

في تفسير «نور الثقلين» جاء في ذيل الآية «يسألونك عن الروح» ضمن مجموعة من الأحاديث وردت لنا عن أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بأن الروح هو بمعنى المخلوق الأعلى شأناً من جبرائيل وميكائيل اللذين كانا يصاحبان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والائمة عليهم السلام، ويحفظونهم من الانحراف والزلل، خلال مسيرتهم.

ولما سأل أبو بصير الإمام الصادق عليه السلام عن الروح، أجابه بأنها شيء في الانسان والحيوان تقوم عليه الأبدان ثم أردف يرد على سؤال أبي بصير حول حقيقة هذا الشيء، بأن (الروح) من عالم القدس واللطافة وقد وجدت بمحض قدرة الحق تعالى ولا مادة فيها.

أما الإمام الباقر ﷺ فإنه يؤكد في حديث له ذكره العياشي في تفسيره عند عرضه لتفسير الآية الآنفة، بأن الروح من الموجودات ذوات البصر والقوة والقدرة.

وجاء في حديث آخر بأن الروح من عالم الملكوت وهي من قدرة الله تعالى.

من هذا، نفهم بان الروح أولاً ليست بمادة بل من المجردات. وثانياً أنها عين قدرة الله. وبالنظر إلى أن الصفات هي عين ذاته فإنها ترى دون أن يكون لها عين وتسمع دون أن يكون لها آذان وهي بمراتب خاصة من جميع الصفات. ففي حديث قدسي جاء:-

«ان الله تعالى خلق آدم على صورته».

كما نقرأ في مصادر الأحاديث القدسية ان الله وجه خطابه إلى النبي داود ﷺ قائلاً:- «مرضت ولم تعدني».

ثم تبين للنبي داود ﷺ أن عبداً صالحاً من عباد الله قد مرض، وكان قد فاته ﷺ أن يزوره. أو أنه في حالة أخرى أشار عزوجل إلى مؤازرة الفقراء مادياً معتبراً إياها إقراضاً له في قوله:-

«وأقرضوا الله قرضاً حسناً».

ثم أنه يرد على الاستخفاف بأحبائه والاستهزاء بهم باستهزائه بالمستهزئين.. هذا ما تذكره الآية:-

﴿الله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون﴾.

وفي حديث قدسي يعد عباده المؤمنين بأن يعوضهم عن كل ما

يفعلونه إخلاصاً له:-

«من كان لله كان الله له».

ونصرة المؤمنين مدعاة استجلاب نصرة ذات الحق باعتباره ربهم:-

﴿إن تنصروا الله ينصركم﴾.

كل هذا يبين ما للروح والنفس الإنسانية من عظمة جعلتها محط تجلي الاسماء الإلهية جميعاً وكفوءةً بمقام «خليفة الله».

اسمع عن الإمام محمد الباقر ﷺ قوله:-

«لا معرفة كمعرفتك بنفسك».

ويقول الإمام علي بن موسى الرضاﷺ في موقع آخر:-

«وأفضل العقل معرفة الإنسان نفسه».

واصغ إليّ اسمعك هذه الأحاديث القيمة عن الإمام علي بن أبي طالب ﷺ:-

- «غاية المعرفة أن يعرف المرء نفسه».
- «نال الفوز الأكبر من ظفر بمعرفة النفس».
- «كفى بالمرء معرفة أن يعرف نفسه».
- «لا تجهل نفسك فإن الجاهل بمعرفة نفسه جاهل بكل شيء».
- «عجبت لمن ينشد ضالته وقد أضل نفسه فلا يطلبها».
- «من لم يعرف نفسه بَعُد عن سبيل النجاة وخبط في الضلال والجهالات».
- «المعرفة بالنفس أفضل المعرفتين».

- «معرفة النفس أنفع المعارف».
- «أفضل العقل معرفة المرء بنفسه فمن عرف نفسه عقل ومن جهلها ضل».
- «من جهل نفسه، كان بغيره أجهل».
- «من شغل نفسه بغير نفسه، تحير فيالظلمات وارتبك في الهلكات ولم يعرف نفسه».
- «من عرف نفسه كان لغيره أعرف».
- «من عرف نفسه فقد انتهى إلى غاية كل معرفة وعلم».
- «من عرف الله توحد، من عرف نفسه تجرد، من عرف الناس تفرد ومن عرف الدنيا تزهد».

ونقرأ في أحد الأدعية المروية عن الأمام علي بن الحسين سيد الساجدين عليه السلام:-

«واجعلنا من الذين عرفوا أنفسهم، وأيقنوا بمستقرهم، فكانت أعمارهم في طاعتك تفنى».

«معرفة الله وارتباطها بمعرفة النفس»

استمع أولاً للحديث التالي عن خاتم الأنبياء والمرسلين محمد المصطفى ﷺ:-

«من عَرف نفسه فقد عرف ربه».

واستوعب بدقة كنه الحديثين التاليين عن مولى الموحدين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام:-

«أكثر الناس معرفة لنفسه أخوفهم لربه».

و«عجبتُ لمن يجهل نفسه كيف يعرف ربه».

وينقل عليه السلام عن صحف إدريس:-

«من عرف الخلق، عرف الخالق ومن عرف الرزق عرف الرازق، ومن عرف نفسه عرف ربّه».[1]

ولما عرف السالك إلى ربه، نفسه ينكشف له بالتالي ارتباط خالقه

---

١ - بحار الأنوار، المجلد ٩٥.

وربه بنفسه. وبما أن أقرب المجردات إلى الإنسان هي نفسه وذات الحق تعالى أسمى من جميع المجردات فإنه ليحملن مظهراً من مظاهر عالم المجردات معه ليتقصى في نفسه طريقه الى معرفة رب الأرباب. فالشمس بعيدة عن منالنا ولكننا نتقصى حقيقتها من أشعتها التي تكمن جميع صفات الشمس فيها.. فإن كان في الأشعة دفء فالمرتبة المنزلة له هي الشمس.. وإن كان فيها نور فإنه للشمس.. وإن بذلت طاقة، فطاقتها أيضاً من الشمس. وقد حدثتك من قبل أن كل ما في معلول العلة التامة إنما مرتبته النازلة هي العلة. هكذا صار النظر في النفس يُمكِّنك من معرفة الله.

إسمع إشارات أخرى حول مصابيح الهداية هذه:-

لو سئلت أين تستقر نفسك في جسمك؟ لما كان لك من جواب إلا أن تردّ بأنها مع جميع أجزاء بدنك. فإن لدغت إحدى خلاياك الجلدية بعوضة ربما تعذرت عليك رؤيتها لشدة دقتها وصغرها ومع ذلك تشعر فوراً بالألم. وإن سقطت شعرة في فمك ينبهك لسانك إليها. انك تتحسس تحكم نفسك بخلية خلية من بدنك بكله رغم أنك لست قادراً على الإشارة إلى النفس. تشهد معيتها مع جميع أجزاء بدنك، ومع ذلك لا تهتدي لموقعها بالضبط. وهكذا هيمنة الله وتحكمه بعالم الوجود بأسره وتسييره لشؤونه.

والإشارة الأخرى هي أن أحاسيسك جميعاً تفقد أداءها لولا النفس.. فعينك ترى بالنفس، وأذنك تسمع بها، وعقلك يدرك ويفكر بها، وقلبك ينبض بها.. وليس للنفس لا أذن من عالم المادة، ولا عين

ظاهرة. هكذا يمكنك ان تلتفت لصفات الحق تعالى بتأملك في نفسك. فالله بصير دون عين وسميع بلا أذن ومدرك دون دماغ وقادر دون أن يكون له أطراف أربعة انصت لإشارة أخرى:-

ينام الشخص ونفسه متيقظة تدبر شؤون جميع أجهزة بدنه مع أن الشخص مستغرق في عالم الرؤيا، القلب في نشاط مستمر، الرئة تواصل التنفس، الجهاز الهضمي منهمك بأداء وظائفه والكليتين بتنقية الدم. كل ذلك يتم بأمر النفس. فعندما يسقط غطاؤك على أنفك تزيحه عن الأنف يدك، تلقائياً، دون إرادة منها. وما أن تعرّض بعوضة جلدك للأذى تسارع اليد إلى طردها. وقد تكثر من الأكل فتولد عمليات التجزئة الكيميائية في المعدةِ كماً كبيراً من الغازات فيها مما يوجه ضغطاً على قلبك وحجابك الحاجز. في مثل هذه الحالة تستعرض النفس هيولاها وتعكسها عليك فترى أحلاماً مضطربة مقلقة تنتهي بإيقاظك من النوم. تنبه سريعاً لضربات قلبك ولاحظ تسارعها لتدرك ما هو حجم الضغط الذي كان هذا العضو من بدنك يتحمله جراء تجمع الغازات؟ تنهض، فيصبح وضع جسمك عمودياً. تتجشأ عدة مرات، يقل الضغط المنبعث في أحشائك ويعود إليك هدوءُك ثانية فتستسلم الى النوم من جديد. من يا ترى اعاد إليك هدوءك وأنت مستغرق في النوم؟ الأمر واضح. إنها النفس التي لا تعرف النوم. إنها متيقظة دوماً. وخذ على نفس الوتيرة أمر ربك:-

﴿الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم﴾.[١]

وإليك إشارة أخرى:

كل ما تحسسته أنت طوال عمرك من مناظر رأيتها، أحاديث سمعتها، أشخاص تعرفت عليهم، كلها تشغل حيزاً في ذخيرة معلوماتك والنفس متى ما شاءت تستدعى وتتذكر ثانية ما أودعته في مستودع العلم المخزون عندك. الأمر هنا مسير من قبل إرادة واحدة. وقد يتذكر الشخص بعد مضي ستين أو سبعين سنة ذكرى، سيماء شخص، حادثاً ما فيكوّن لها من جديد صورة في ذهنه بحذافير تفصيلاتها الأولية. نسميها نحن «إحياء الوجود الذهني». أنت تفهم جيداً أن أياً من أعضاء جسمك لا دخل له في هذه العملية. فإن قلت: الدماغ أقول أنه وسيلة، مستودع يحتفظ فيه بأرشيف السجلات. فالذكريات بحاجة الى ذي عقل يستخرجها. فإن قلت: أنه أنا، أقول لك: قولك «أنا» تعني به نفسك. فأنت قد تتذكر عفوياً ذكريات معينة دون أية مقدمة او تداعي المعاني. وهذا ما يسميه علم النفس الجزء اللاواعي من العقل.

تفهّم إحياء الوجود الذهني هذا باعتباره مظهراً من مظاهر إحياء الموجودات من قبل الله تعالى:-

﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾.

أعود لأذكّر ذهنك الكريم بموضوع آخر: كنت يوماً طفلاً رضيعاً

---

١ - سورة البقرة، الآية ٢٥٥.

ويوماً تلميذاً في المرحلة الابتدائية، ويوماً مراهقاً في المرحلة الثانوية من الدراسة، ويوماً شاباً جامعياً، وفي مرحلة أباً وأخيراً شيخاً طاعناً.. أحياناً سليماً معافى، وأحياناً مريضاً معتلاً.. يوماً نشطاً مفعماً بالحيوية ويوماً حزيناً مكتئباً. تواجه الجهل والعجز في مجالات ما وتُظهر البراعة في مجالات أخرى.

تأمل في جميع هذه المراحل. إنها لا تنسجم مع بعض قط بل قد تتعارض مع بعض. فمن اجتاز هذه المراحل وعرف عددها، أحسن فهم وحدة النفس وتجردها خلال جميع هذه التحولات. فذاك الطفل هو هذا الشيخ نفسه. ومن كان مسروراً هو هذا المكتئب عينه. هذا ما يسند حقيقة التوحيد. فرغم ثبوت الذات الأزلية فإنها تخلق بهارج الربيع يوماً، وتظهر التقهقر الخريفي آخر: «هو أضحك وأبكى».. ومن يحيي هو ذاته المميت. هنا تمسك برأس خيط قد تحل به عقدة السر في الأحاديث الآنفة، فتدرك مفهوم «من عرف نفسه فقد عرف ربه».

والإشارة الأخرى هي أن نفسك قائمة على كل عمل تؤديه، فلا تحسبن هذا القيام كقيام أي مراقب على عمل معين فقط بل قيام يسيّر العمل ذاته. فخذ في اعتبارك ارتباط الله مع نفسك كارتباط نفسك بأعمالك فإنه، إضافة إلى إحاطته العلمية، قائم على جميع أعمال النفس، وقيامها في الواقع لا يمثل إلا قيام الحق على الجسم أي أنه: «لا حول ولا قوة إلا بالله».

تأمل هذه الحقيقة في الآية التالية أيضاً:-

﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾.[1]

وهذه القضية لا تنسحب على العلم والقدرة فقط بل على جميع الصفات التي تظهر في النفس وفي كل الموجودات. فمردها جميعاً لصفات الله وأصل حياة النفس هو تجل من تجليات حياة الحي المطلق، بالضبط كما تنطلق حياة الجسم من حياة النفس.

قال الإمام محمد الباقر عليه السلام:-

«وهو حياة كل شيء».

---

١ - سورة الرعد الآية ٣٣.

معرفة النفس من وجهة نظر صاحب تفسير الميزان (ره)

في تفسيره للآية ١٠٥ من سورة المائدة يعرض العارف الكبير العلامة الطباطبائي أموراً وضاءة ومعارف توجيهية، لو تدبرت فيها لاهتديت إلى طرق معرفة النفس المتيسرة لك، فاستمع إلى كلامه حيث يكتب في الجزء السابع من تفسيره:-

«في الغرر والدرر للآمدي، عن علي عليه السلام:-

«من عرف نفسه عرف ربه».

أقول: ورواه الفريقان (أي كلاً من الشيعة والسنة) عن النبي أيضاً. وهو حديث مشهور. وقد ذكر بعض العلماء: أنه من تعليق المحال ومفاده استحالة معرفة النفس لاستحالة الإحاطة العلمية بالله سبحانه، ورد أولاً بقوله صلى الله عليه وآله وسلم في رواية أخرى:

«أعرفكم بنفسه أعرفكم بربه».

وثانياً، بأن الحديث في معنى عكس النقيض، لقوله تعالى:-

﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾.

وفيه عنه ﷺ، قال: «الكيس من عرف نفسه وأخلص عمله».

أقول: تقدم في البيان السابق معنى الإخلاص وتفرعه على الاشتغال بمعرفة النفس.

وفيه عنه ﷺ، قال:-

«المعرفة بالنفس أنفع المعرفتين».

أقول:- الظاهر أن المراد بالمعرفتين، المعرفة بالآيات الأنفسية والمعرفة بالآيات الآفاقية.

قال تعالى:-

﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم، حتى يتبين لهم أنه الحق أوَ لَم يكف بربك أنه على كل شي شهيد﴾.

وقال تعالى:-

﴿وفي الأرض آيات للموقنين. وفي أنفسكم، أفلا تبصرون﴾.[1]

وكون السير الأنفسي أنفع من السير الآفاقي، لعله لكون المعرفة النفسانية لا تنفك عادة من إصلاح أوصافها وأعمالها بخلاف المعرفة الآفاقية. وذلك أن كون معرفة الآيات نافعة إنما هو لأن معرفة الآيات بما هي آيات موصلة إلى معرفة الله سبحانه وأسمائه وصفاته وأفعاله ككونه تعالى حياً لا يعرضه موت، وقادراً لا يشوبه عجز، وعالماً لا يخالطه جهل، وأنه تعالى هو الخالق لكل شيء، والملك لكل شيء، والرب القائم على كل نفس بما كسبت خلق الخلق لا لحاجة منه إليهم

١ - سورة الذاريات، الآية ٢١.

بل لينعم عليهم، بما استحقوه ثم يجمعهم ليوم الجمع لا ريب فيه، ليجزي الذى اساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى.

وهذه وأمثالها معارف حقه إذا تناولها الإنسان وأتقنها مثلت له حقيقة حياته، وأنها حياة مؤبدة ذات سعادة دائمة او شقوة لازمة. وليست بتلك المتهوسة المنقطعة اللاهية اللاغية. وهذا موقف علمي يهدي الإنسان إلى تكاليف ووظائف بالنسبة إلى ربه وبالنسبة إلى أبناء نوعه في الحياة الدنيا والحياة الآخرة، وهي التي نسميها بالدين. فان السنة التي يلتزمها الإنسان في حياته ولا يخلو منها حتى البدوي والهمجي، إنما يضعها ويلتزمها أو يأخذها ويلتزمها لنفسه من حيث أنه يقدر لنفسه نوعاً من الحياة أي نوع كان، ثم يعمل بما استحسنه من السنة لإسعاد تلك الحياة، وهذا من الوضوح بمكان.

فالحياة التي يقدرها الإنسان لنفسه تمثل له الحوائج المناسبة لها فيهتدي بها إلى الأعمال التي تضمن عادة رفع تلك الحوائج فيطبق الإنسان عمله عليها وهو السنة أو الدين.

فتلخص مما ذكرنا أن النظر في الآيات الأنفسية والآفاقية ومعرفة الله سبحانه بها يهدي الإنسان الى التمسك بالدين الحق والشريعة الإلهية من جهة تمثيل المعرفة المذكورة الحياة الإنسانية المؤبدة له عند ذلك، وتعلقها بالتوحيد والمعاد والنبوة.

وهذه هداية إلى الإيمان والتقوى يشترك فيها الطريقان معاً أعني طريقي النظر إلى الآفاق والأنفس فهما نافعان جميعاً غير أن النظر إلى آيات النفس أنفع فإنه لا يخلو من العثور على ذات النفس وقواها

وأدواتها الروحية والبدنية وما يعرضها من الاعتدال في أمرها أو طغيانها أو خمودها والملكات الفاضلة أو الرذيلة، والأحوال الحسنة أو السيئة التي تقارنها.

واشتغال الإنسان بمعرفة هذه الأمور والإذعان بما يلزمها من أمن أو خطر وسعادة أو شقاوة لا ينفك من أن يعرفه الداء والدواء من موقف قريب فيشتغل بإصلاح الفاسد منها، والالتزام بصحيحها بخلاف النظر في الآيات الآفاقية فإنه وإن دعا إلى إصلاح النفس وتطهيرها من سفاسف الأخلاق ورذائلها، وتحليتها بالفضائل الروحية لكنه ينادي لذلك من مكان بعيد، وهو ظاهر.

وللرواية معنى آخر أدق مستخرج من نتائج الأبحاث الحقيقية في علم النفس وهو أن النظر في الآيات الآفاقية والمعرفة الحاصلة من ذلك نظر فكري وعلم حصولي بخلاف النظر في النفس وقواها وأطوار وجودها والمعرفة المتجلية منها فإنه نظر شهودي وعلم حضوري، والتصديق الفكري يحتاج في تحققه إلى نظم الأقيسة واستعمال البرهان، وهو باق ما دام الإنسان متوجهاً إلى مقدماته غير ذاهل عنها ولا مشتغل بغيرها، ولذلك يزول العلم بزوال الإشراف على دليله وتكثر فيه الشبهات ويثور فيه الاختلاف.

وهذا بخلاف العلم النفساني بالنفس وقواها وأطوار وجودها فإنه من العيان فإذا اشتغل الإنسان بالنظر إلى آيات نفسه، وشاهد فقرها إلى ربها، وحاجتها في جميع أطوار وجودها وحياتها وعلمها وقدرتها وسمعها وبصرها وإرادتها وحبها وسائر صفاتها وأفعالها بما لا يتناهى

بهاءً وسناءً وجمالاً وجلالاً وكمالاً من الوجود والحياة والعلم والقدرة، وغيرها من كل كمال.

وشاهد ما تقدم بيانه أن النفس الإنسانية لا شأن لها إلا في نفسها، ولا مخرج لها من نفسها، ولا شغل لها إلا السير الاضطراري في مسير نفسها، وأنها منقطعة عن كل شيء كانت تظن أنها مجتمعة معه مختلطة به إلا ربها المحيط بباطنها وظاهرها وكل شيء دونها فوجدت أنها دائماً في خلأ مع ربها وإن كانت في ملأ من الناس.

وعند ذلك تنصرف عن كل شيء وتتوجه إلى ربها وتنسى كل شيء وتذكر ربها فلا يحجبه عنها حجاب ولا تستتر عنه بستر وهو حق المعرفة الذي قدر لإنسان.

وهذه المعرفة الأحرى بها أن تسمى بمعرفة الله بالله، وأما المعرفة الفكرية التي يفيدها النظر في الآيات الآفاقية سواء حصلت من قياس أو حدس أو غير ذلك فإنما هي معرفة بصورة ذهنية عن صورة ذهنية، وجل الإله أن يحيط به ذهن أو تساوي ذاته صورة مختلفة اختلقها خلق من خلقه، ولا يحيطون به علماً.

وقد روي في الإرشاد والاحتجاج على ما في البحار عن الشعبي عن أمير المؤمنين عليه السلام في كلام له: إن الله أجل من أن يحتجب عن شيء أو يحتجب عنه شيء. وفي التوحيد عن موسى بن جعفر عليه السلام في كلام له: ليس بينه وبين خلقه حجاب غير خلقه احتجب بغير حجاب محجوب واستتر بغير ستر مستور لا إله إلا هو الكبير المتعال. وفي التوحيد مسنداً عن عبد الأعلى عن الصادق عليه السلام في حديث: «ومن

زعم أنه يعرف الله بـحجاب أو بـصورة او بـمثال فـهو مشـرك لأن الحجاب والصورة والمثال غيره، وإنما هو واحد موحد فكيف يوحد من زعم أنه يوحده بغيره إنما عرف الله من عرفه بالله فمن لم يعرفه به فليس يعرفه إنما يعرف غيره». والأخبار المأثورة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام في معنى ما قدمناه كثيرة جداً لعلَّ الله يوفقنا لإيرادها وشرحها في ما سيأتي إن شاءِ الله العزيز من تفسير سورة الأعراف».

«باقة زهور من روضة الفص الآدمي لابن عربي»

انك لتجد في الفص الآدمي أنواراً ساطعة ومصباحاً وضاء يهديك السبيل في معرفة النفس. براعة هذه المعارف دفعتني لأنير دربك بهذا المصباح لعلي أمهد لك سبيلك إلى معرفة النفس فتهتدي بفيض من الألطاف الإلهية إلى هذا المقام السامي. فقيمة الانسان ومكانته تتوقف على روحه ونفسه وإلا ليس لجسمه فارق يذكر مع بقية الحيوانات الثديية. فلك أن تلتفت بمطالعة هذا الفص إلى عظمة النفس الإنسانية لأنه يكشف لك عن خبايا رائعة. سأتلو عليك استنباطي من هذا الحديث فلم أنقله لك بعينه وقد علمت أنك قد تضيق به صدراً.

إعلم أن أسماء الله -ولأنها تشمل جميع الأسماء الجمالية والجلالية، ولم يكن هنالك من موجود يستوعب تجلي جميع هذه الأسماء- صار لزاماً على الإنسان وهو المخلوق لتحمل أعباء خلافة الحق والمتمتع بمقام جامع جميع مراتب العالم، أن يحرز قابلية تجلي

جميع هذه الأسماء. فأحرز هذه المرتبة التي لم يحرزها سواه. فصار في الحقيقة مظهراً لاسم الله أيضاً.

ولما خص الحق تعالى كلاً من الموجودات بأحد أسمائه أو صفاته، وكان الكون بأسره في الحقيقة ساحة تجلي الأسماء الإلهية التي ملأت كل ركن من أركانه التي لا تخلو منها: «وبأسمائك التي ملأت أركان كل شيء».[١] شاء الله أن يخلق موجوداً يمثل الحد الوسط بين ذاته وبقية الأكوان فينال بواسطته كل ما في عالم الكون من فيض الأسماء، كل على قدر استيعابه الوجودي. فخلق النفس الإنسانية، والمقصود منها نفس الإنسان الكامل. فأول (ما خلق الله) صار مرآة وجوده. فالكون الجامع هو في الحقيقة الإنسان الكامل المسمى بآدم.

في هذا الخصوص قال تعالى:-

﴿فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾.[٢]

ولما كان الملائكة يجهلون مقامه قالوا:-

﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾.[٣]

فأجابهم الحق تعالى:-

﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾.

ولو كان لهم علم بذلك لخروا له سجداً قبل الاستشكال، فمتبين

---

١ - من عبارات دعاء كميل.

٢ - سورة الحجر، الآية ٢٩.

٣ - سورة البقرة، الآية ٣٠.

تجل لجميع الأسماء وأن التجلي لا غنى له، في ايجاده، عن المتجلي ولو للحظة واحدة، مثلما أشعة الشمس تكتسب من الشمس كل شيء ولكن في نفس اللحظة لا تملك من نفسها شيئاً أبداً. فالإنسان عند نظره إلى نفسه لا يجد فيها إلا الفقر، ومن نظره إلى ربه لا يرى إلا الغنى.

كان في علم رب المعرفة أنه ليس هنالك من موجود في العالم يدرك حقيقة نفسه وحقيقة العالم الموجود سوى الإنسان. يشير إلى ذلك قوله تعالى في الآية الكريمة:-

﴿إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال...﴾،
و﴿حملها الإنسان، إنه كان ظلوماً جهولاً﴾.

إنه ظلوم لنفسه يسرف في قتلها وقمعها، جهول لغيره ينفي عن الوجود ما سوى محبوبه ولا يرى ديّاراً في العالمين إلا الحق. ولسان حاله يقول:-

﴿وليس في الدار غيره ديّاراً﴾.

إنه طموح زائد يتصف به دون سواه، عجزت حتى الملائكة عن بلوغه، فانبرت تردّ على ربها:-

﴿لا علم لنا إلا ما علمتنا﴾.[1]

وحتى جبرائيل أرخى رحاله في منعطف من رحلته وهو يرافق

---

١ - سورة البقرة، الآية ٣٢.

ذلك الإنسان الكامل قائلاً ما وصفه لنا الشاعر لسان حاله:-

قدم گر فراتر نهم زين مقام
به نور تجلى بسوزم تمام
چو سيد رخ از سوختن برنتافت
زحق قرت «قاب قوسين» يافت[1]

* * *

فالإنسان الكامل هو تجل لذات الحق والعالم تجل للإنسان الكامل، أي أن الانسان في الحقيقة هو العالم الصغير المجمل والعالم هو انسان كبير مفصل.

ينقل ابن عربي في هذا الفص عن الإمام علي عليه السلام الأبيات التالية:-

دواؤك فيك وما تشعر وداؤك منك وما تبصر
وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر
وأنت الكتاب المبين الذي بأحرفه يظهر المضمر

الإنسان فيالعالم كأنه فص في خاتم فكما أن قيمة الخاتم تتحدد

---

١ - معناهما:-
«لو أتقدم خطوة أكثر من هذا المقام، سأحترق من نور التجلي بالتمام»
«ولما استحال الحرق لسيد الكونين، نال من الحق مقام (قاب قوسين)».

بالفص، والفن والجمال يتجليان في الفص بالذات، صار الإنسان مظهراً لجمال الحق وجلاله في العالم بأسره. إنه المخلوق الذي أطرى مسوِّيه على نفسه عندما سوّاه.

ولما شاء سلطان الوجود أن يودع حبه في خزانة اتخذ خليفة، سلمه حبه وائتمنه على خزانته واهباً إياه حق التصرف فيها.

﴿إذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾.(١)

ألم تشهد أنه منذ تسلّم خزينة الأرض هذه، كم من الكنوز استخرج، وكم من الذخائر استثمر، وكم من القوى العظمى كشف عنها في هذه الخزينة. ولا يعلم إلا الله ما أعظم ما ينتظره من ذخائر في هذه الخزينة التي تسلّم مفاتيحها. ولتعلمن أن الإنسان الكامل هو تجلي الاسم «الكامل» للحق. والانسان الكامل ينال تمام نصيبه من الدارين حيث يروى أن رحمة الله مائة جزء ونعمائه في هذا العالم هي جزء واحد فقط منها وأما التسعة والتسعون الجزء الباقية فهي نعم أخروية وللإنسان الكامل نصيب من جميع النعماء الدنيوية والأخروية المئة.

والملائكة لا تتمتع بجامعية الإنسان. فالإنسان يعبد الله من حيث كل الاسماء، والملائكة من حيث اسم خاص أو أسماء معينة. كما أنها لم تكتف بالطعن في آدم واستعابته بل ذكرت تنزيهها لله:-

﴿نحن نسبح بحمدك﴾.

---

١ - سورة البقرة، الآية ٣٠.

ومما لا شك فيه هو أنها باغترارها في نـفسها نكـصت إلى الوراء حيث وقع عليها القول:-

«جودك ذنب لا يقاس به ذنب».

ومن جهة أخرى فان الحكمة الإلهية اقتضت أن يبادر آدم لأكـل الفاكهة الممنوعة متناسياً لأمر الله ليظهر بذلك غفرانه ورحمته. جـاء في الحديث القدسي:-

«لو لم تذنبوا لذهبت بكم وخلقت خلقاً يذنبون ويستغفرون فاغفر لهم».

فبهذا الذنب ظهر غفران الحق من اسمه «الغفار» كما كـان مـدعاة انبثاق التواضع في نفس آدم، حيث قال رسول الله ﷺ:-

«لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أشد من الذنب ألا وهو العُجب، العُجب، العُجب».

ولما كان العالم حضرة تجلياته، نوَّه للإنسان بأن:-

﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم﴾.

أشار للآفاق قبل الأنفس لأن الآفاق هي تفصيل مرتبة آدم وهي في الوجود العيني أولى، على صعيد النظر في آيات الله، من مرتبة الإنسان ونفسه التي تعتبر من المجردات. فمن عرف نفسه فإنه بالتالي يكون قد عرف ربه ومن نظر إلى نفسه يكون ناظراً إلى الله، حـيث جـاء فـي الروايات:-

«إن الله تعالى خلق آدم على صورته».

وعن نبينا ﷺ، قال:-

«المؤمن مرآة المؤمن».

يشرح ابن عربي معنى المؤمن الأول بأنه من آمن بالله من عباده والمؤمن الثاني بأنه الله وبأنه من أسماء الله، فيخلص إلى ان الله تعالى أراد أن ينظر إلى جميع أسمائه متجلية في أحد مخلوقاته فخلق الانسان الكامل وهو مرآة واضحة وكاملة لجماله، لينظر إليه متى ما أراد النظر إلى صفاته، وينظر الإنسان إلى ربه متى ما أراد النظر إلى نفسه. فالإنسان يرى نفسه في مرآة الوجود المطلق. وعندئذ تغيب عنه نفسه فيفنى كقطرة ماء في بحر الوجود. والوجود المطلق ينظر إلى نفسه في مرآة الإنسان التي تظهر جميع تجلياته دون استثناء.

كانت هذه معارف قدمتها لك عن النفس الانسانية كي لا تستصغر شأنها وتضيع فرصة العمر متهالكاً وراء ما يستحقر من الأهداف وما يستهوى من زخارف الدنيا فترحل عن الدنيا قبل أن تعرف ذاتك.

«كل هذه العظمة، كيف تستغلها؟»

مر بنا أن كل موجود تتحدد حاجته بحسب استيعابه، حيث لا تتجاوز حاجة النملة قطرة ماء والحوت البحر ومعدة الإنسان رشفة ماء ولقمة طعام ولكن بم تمتلىء الروح الانسانية؟

قال الإمام علىعليه السلام :-

«كل وعاء يضيق بما جُعل فيه إلا وعاء العلم فإنه يتسع».

فوعاء العلم، هو نفسك برمتها. فالترع والبحيرات والبحار وحتى المحيطات لها استيعاب محدود. فما هذه العظمة اللامتناهية التي تميز بها وجودك، فمهما ألقي فيه لا يضيق مجالاً بل تزداد سعته. هنا يتبلور بحثان:

الأول: هو حول اتحاد العالم والمعلوم. فكل ما ألقيت في نفسك يتوحد معها وهو ما لا ننوي الخوض في حديثه ولك الاطلاع على إثباته من كتاب «صدر المتألهين (ره)» وهي من المسلمات في العرفان والفلسفة. ما نحن بصدد ايضاحه في هذا الموضوع هو أن للعالِم نفس

قد ترقى عظمتها السماوات وللجاهل نفس بحجم الجوزة.

فاعلم أن النفس الإنسانية تتميز بحالة اتساع وجودي إزاء أنوار العلم، ولما كان العلم من المجردات، وقد تعالى شأنه عن أوصاف المادة، فنفسك هي الأخرى ولكونها من المجردات تزداد استيعاباً للمجردات. الآن تأمل نفسك إلى أية درجة حجّمت أهدافك جميعاً بتحديدها في إطار الأهداف الجسمانية، وأنت تغفل عن عظمة نفسك متجاهلاً حاجتها إلى نور العلم والعمل؟

يقول محيي الدين ابن عربي في كتابه «الفتوحات المكية»:-

«لا تجعل طبيعتك حاكمة على حياتك الإلهية».

أي امنع انقيادك لسلطان الدوافع الجسمانية والرغبات الغريزية بما يغرقك في متاهاتها ويفرض على نفسك التخلف عن ركب الحياة الإلهية.

ما بالك؟ ليس هنالك في أي موقع متسع لله ولا حتى منزل إلا في قلب الإنسان. عجباً ما أعظم القلب!

نقرأ في أحد الأحاديث القدسية:-

«لا يسعني أرضي ولا سمائي ولكن يسعني قلب عبدي التقي النقي».

كما جاء في الروايات:-

«قلب المؤمن عرش الله».

فما دام بوسعك أن تجعل قلبك عرشاً إلهياً، فواحسرتاه عليك إن اقتنعت بهدف دون ذلك ولم تتهافت في هذا الطريق.

يقسم الشيخ أبو بكر الواسطي في كلام رائع حول مقامات الروح، هذه المقامات إلى عشرة مقامات ويقول في إشاراته حول المقامات الأخيرة أن الروح في المقام التاسع إنما هي في قبضة قدرة الله، وفيه يخاطبها الحق تعالى فلا ترى إلا الحق فيُسقط عنها الحق شواهد الحادثات ويدرج في الموصوف صفاته. وفي المقام العاشر (بحسب قول الشيخ الواسطي) تغيب عن الروح مشاهداتها وتصبح قائمة بمشاهدته. فلا هي هي ولا قيامها قيامها، فتنمحي رسومها وتطمر آثارها. فيصبح صاحبها كما نوّه عز وجل في الحديث القدسي المعروف بحديث النافلة حيث قال: «يا محمد! ما يتقرب إليّ عبد من عبادي بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه، وانه ليتقرب إلي بالنافلة حتى أحبه. فإذا أحببته كنت إذاً، سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها، «إن دعاني أجبته، وإن سألني اعطيته»».

ولعزيز النسفي أيضاً في كتاب «الإنسان الكامل» كلام بديع في هذا السياق: «لقد سمعت منذ أمد أنه وضع في المحيط مرآة عاكسة لمظهر الدنيا لتنعكس فيها صورة كل شيء ينساب من المحيط قبل وصوله الى مكان آخر.. أنت لا تعلم ما هي هذه المرآة وأي بحر هذا؟ هذا البحر هو عالم الغيب وتلك المرآة هي مرآة قلب الانسان الكامل. فكل ما ينساب من بحر علم الغيب تظهر صورته على قلب الانسان الكامل فيطّلع عليه الإنسان الكامل قبل وصوله إلى ساحل الوجود».

وهذا ما عناه شاعر شيراز «حافظ» في أبياته:-

سالها دل طلب جام جـم از مـا مـی‌کرد
آنچه خـود داشت زبـیگانه تـمنا مـی‌کرد
گوهری کز صدف کون و مکان بیرون بود
طلب از گـمشدگان ره دریـا مـی‌کرد[١]

المراد من هذا الكلام هو: تمعن في حقيقتك مادمت تواصل حياتك في هذه الدنيا الترابية الزائلة، وفي الهدف من مجيئك وإلى أين سوف ينتهي بك السبيل؟ فإن وفقك الحق تعالى لتتعرف على حقيقتك وهي أثمن جواهر عالم الممكنات سوف تـتصل عـندئذ بأعـلى درجـات المعرفة مما يحفظك من التسلي بشـؤون مـتدنية أو تـضيّع هـذا الدر الوضاء في الحمأ. فأينما ارتضيت لهذا القلب محطة فسوف يكون آنياً، ولو ارتضيت له سوى الله مالكاً فقد أهدرته. فـمحطة القـلب مـقعد صدق لا غير، وغيرها مـن المـحطات ديـار الخـداع ومـقعد كـذب. وللقلب، من يملكه ملكاً حقيقياً، يفترض أن لا يودع إلى سواه وهـو المليك المقتدر لعالم الوجود:

---

١ - معناهما:

«سنون مرّت والقلب يطلب منا كأس جم، وهو (في الحقيقة) يطلب من الغرباء ما يملك هو نفسه»

«فالجوهرة المنعزلة عن صدف الكون والمكان،راحت تسأل التائهين هول دربـها إلى البحر».

﴿إن المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾.[١]

هنالك محطة استقرار يرنو الأبرار لبلوغها لتقرّ عيون قلوبهم برؤية جمال المحبوب والاستماع إلى حديث المعشوق. إنهض واحمل زاد الطريق فما زال الطريق أمامك طويلاً والقلب طموحاً لتحقيق ذاك المنال.

---

١ - سورة القمر، الآيتان ٥٤ و٥٥.

«حي بن يقظان»

للفيلسوف الكبير ابن سينا رسالة تحمل عنوان «حي بن يـقظان» يدور البحث فيها حول مصير النفس وهي موجود حي يـعتبرها ابـن سينا خلفاً وابناً للعقل ومظهرَ ﴿لا تأخذه سنة ولا نوم﴾.

فالنفس بحر لا نهاية له، إنها ليست مادة يضيق بها المكان أو الزمان بل وعاءً عظيماً لا يملأه شيء أبداً.

يروي الشيخ الصدوق (ره) فـي كـتاب «مـن لا يـحضره الفـقيه» الحديث الشريف التالي عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام:-

«إعلم ان درجات الجنة على عدد آيات القرآن فإذا كان يوم القيامة يقال لقارىء القرآن اقرأ وارق».

كما نقرأ في كتاب الكافي عن الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام، قوله:-

«من مات من أوليائنا وشيعتنا ولم يحسن القرآن، علم في قبره ليرفع الله به من درجته، فإن درجات الجنة على قدر آيات القرآن يـقال له

اقرأ وارق فيقرأ ثم يرقى».

نلتفت من خلال الحديثين السابقين إلى مقامات الجنة ودرجاتها وهي منزل النفس الانسانية الناطقة وربما يكون المقصود في هذين الحديثين هو ان لقارىء القرآن أجراً يناله في هذه النشأة وهو ارتقاؤه درجة وكل آية من القرآن يتلوها على مر حياته.. وهذا ما لا يعجب له إزاء فيض الله الكريم. فبهذا النحو تتفهم عظمة نفسك وعلو شأنها.

فهاك ثروة لا حد لها ولا حصر وأنت في سوق هذه الدنيا. إعلم أنها سوف تعطل مبكراً وتُقفل أبواب محلاتها سريعاً. حذارِ أن تلتحق بركب المنخرطين في السوق بمثل هذه الثروة ثم يجدون أنفسهم عند انتهاء ساعات نشاط السوق وقد أضاعوا الثروة ولم يحفظوا لأنفسهم منها زاداً للسفر فيتركون سوقهم وقد خلت أيديهم من كل نصيب.

وأعلم أن جسمك مكون من عناصر بلغ حساب ما اكتشف منها حتى اليوم ما يقارب (١٠٤) عناصر. وكل من هذه العناصر تدخل وبنسب متباينة في تركيبة جسمك. أنت تتناول طعامك المتكوّن من نفس هذه العناصر، نباتياً كان أم حيوانياً أم معدنياً. فالشعور بالجوع يعنى الحاجة إلى هذه العناصر نفسها، وعند تلبية الحاجة على قدرها تشعر بالشبع وتكف عن تناول الطعام. وقد خلق الله إلى جانب الذوق الالتذاذ أيضاً ولكن حتى مرحلة تلبية الحاجة وعندها ولّد لديك الكراهية والنفور لتكف عن الأكل. هذه حكاية بدنك وأنت تعرفها منذ نعومة أظافرك.

فلنعد إلى نفسك، فالغذاء والمتغذي في هذا السياق متوحدان من

ناحية النوعية. ولما كانت النفس مجردة لا تتغذى من الماديات. هل ترغب في معرفة غذائها؟ لها طعام وشراب خاص، طعامها ملكوت العمل وشرابها العلم والمعرفة. تجد لنوع غذاء الجسم آثاراً كثيرة في المتغذي، فالمتغذي من غذاء غني بالمكونات الغذائية المطلوبة. يكون قوياً، والطفل الذي يعتاد على أكل الطين يشحب لونه وضفادع الأشجار خضراء اللون والمتغذي من الملوثات يعاني من المرض على الدوام، ومن يراعي النظافة ينعم بالحيوية والنشاط.

إعلم أن للنفس أيضاً مثل هذا.. فإن مددتها بما هو حق من معارف، وما حسن من أعمال، منحتها الرفعة والعزة والعظمة. ولو مرغتها فيما قبح من أعمال، وما كان واهياً غير نافع من معارف أوقعتها في الذلة والانحطاط والدونية وتكون بذلك قد أهدرتها. فكم من الأعمال يبدو عليها الانسجام ظاهراً وهي في الباطن الفاعل، أي على صعيد النية، شاذة متنافرة. فلظاهر أي عمل ارتباط ببدنك أما باطنه -أي ملكوته- فإنه يتوحد مع نفسك.

تعلم أن جسمك بجميع أجزائه يتكون من نفس هذه الأطعمة والأشربة التي توحدت معه. فالأعمال والمعارف هي أيضاً هكذا في النفس بفارق أن جسمك يعيد للتربة ما أخذه منها في النهاية ولكن نفسك تخلد وتحمل معها على الدوام ما أخذته من هذا العالم، فترد عالم الآخرة حاملة ما أدخرت من مكتسبات.. فإما يغدو حطباً لنار جهنم كما يتضح من قوله تعالى:-

﴿وقودها الناس﴾،

أو ليست تنبثق الجنة من نفسك.. فعملك الصالح هو بذرة شجرة «طوبى» وفعلك المذموم بذرة لشجرة الزقوم:-

﴿جزاء وفاقاً﴾.

«النفس ومقامها في يوم القيامة»

اعلم أيها العزيز! أن النفس الإنسانية منذ انفصلت عن أصلها والتحقت بالجسم، إنما شدت رحالها لخوض رحلة تجارة واكتساب. إنها -خلال فترة حياتها في عالم الطبيعة، وهي مرحلة اغترابها- تتلقى انعكاسات كل ما ترى وتسمع وتفعل، انعكاسات مطلوبة أو غير مطلوبة، كلها تتوحد معها وكأنها بحيرة تصب فيها المياه من مناهلها المختلفة، قد تكون نقية صافية وقد تكون وسخة ملوثة.

فتثبت لدى الإنسان أمواج صوتية مختلفة بعضها إلهام رباني وبعضها وسواس شيطاني. وكأن نفسه لاقطة لنداء الحق والفلاح أحياناً وجاذبة للوساوس الشيطانية ولدواعي الخذلان أحياناً أخرى. وقد وصف لك الله كلتا الحالتين حيث قال عز وجل:-

﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء، والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم﴾[1].

---

١ - سورة البقرة، الآية ٢٦٨.

أمعن كيف يتحول القلب طوراً ألعوبة في يد الشيطان وينمى طوراً برعاية من الله الرحمن، حيث قال رسول الله ﷺ:-

«قلب المؤمن بين اصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء».

فكما تتقلب الأشياء بين أنامل اليد تتأثر قلوب المؤمنين بربوبية الحق. فكل موجود يكثر النظر إلى ما يحب ولما كان الله يحب من بين مخلوقاته قلب المؤمن أكثر مما سواه فإنه بالتالي يمنحه حظاً أوفر من تنشئته وربوبيته.

ولكن.. اعلم وافهم أن قلب المؤمن لولا لطف الله ورأفته لَغُلب على أمره في غضون هذه التحولات والتقلبات وانقاد شر انقياد للشيطان:- ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً﴾[1]، واعلم أيضاً أن الإنسان يقضي حياته على مر لحظاتها في عمل متواصل، ولما كانت ايعازات الجسم تتأتى من النفس تتلقى النفس والروح انعكاسات جميع الأفعال ومردودات الأعمال كلها، فتتوحد هذه الانعكاسات معها. فانظر إلى وضع شجرة نمت في أرض خصبة وتنعم بضوء الشمس وإلى جوارها نهر غزير بمياه دافقة، قارنها مع شجرة نبتت في أرض سبخة، حرمت فيها من ضوء الشمس إلا قليلاً، لا نماء لها إلا نادراً ولا شرب لها إلا شحيحاً من مياه الأمطار. الشجرة الأولى تظهر نعمها للعيان والشجرة الثانية تعكس بمظهرها معاناتها وشظف عيشها. فحال كلتيهما باد على الجذع والأوراق والثمار والاخضرار.

---

١ - سورة النساء، الآية ٨٣.

وهذا هو مفهوم اتحاد المكتسب مع الموجود. وكان لك في الشجرتين مثال من عالم الماديات.

والأمر سيان فيما يخص نفسك المجردة فكل نفس رهينة بأعمالها ومكتسباتها. فأعمالها ومكتسباتها تتوحدان معها. سوق التجارة والكسب سوف يعلن عن تعطيله قريباً، ومجمل مكسبك منها هو ذخرك الذي يرافقك دهراً أبدياً سرمدياً. فالموت بدرجة من الدنو منك ومن نفسك بحيث لا يغفل عنك للحظة واحدة لأنه مشيئة الله فيك وقد قال تعالى:- ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها﴾.

ولتعلم مدى قربه إليك، إقرأ الآية:-

﴿نحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾.

وما أروع قوله في الآية:-

﴿ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأُخذوا من مكان قريب﴾[١].

الآن سوق الكسب في هذا العالم ناشطة تبذل لك أرباحها لاسيما إن كنت في ريعان الشباب. ما بالك لو تنبهت يوماً أن ثروتك بددت وفرصة عمرك أهدرت فقد جنّ الليل وعطلت السوق. عندئذ تطلب العودة ثانية إلى السوق فيقال لك: هيهات لحلمك أن يتحقق:-

﴿وقالوا آمنا به وأنى لهم التناوش من مكان بعيد... وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾.[٢]

---

١ - سورة سبأ، الآية ٥١.

٢ - سورة سبأ، الآيتان ٥٢ و٥٤.

«سجل الأعمال مدون على صفحات وجود نفس الإنسان»

إن استهلاك أي من عجلات السيارة أمر لا يحدث خلال لحظة واحدة. ففي كل دورة تدورها العجلة يحصل بينها وبين الأرض، بحسب وضعها، احتكاك يؤدي بالتدريج إلى إتلافها، وهو ما ينبىء عنه سطح العجلة. أما العجلة الجديدة التي لم تتعرض لأية صدمة فتبدو الحداثة على طياتها وتعرجاتها. هكذا هي آثار الخطايا وما قبح من مكتسبات في نفس الإنسان جيث يتوحد معها كل ما شهدته من أعمال....، استمع إلى صوت القرآن يردد:-

﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾.[1]

يفسر الراغب الاصفهاني معنى لفظة «رين» التي منها تؤخذ كلمة (ران) بأنه الغبار والصدأ أو العتمة التي تلقي بظلها على الشيء الثمين. وما أتعس قلبك الثمين الذي أئتمنت عليه إن أنت لوثته بصدأ الإثم. فهذه الطامة الكبرى تغير ماهية القلب حتى يعجز عن تمييز الحسن من

---

١ - سورة المطففين، الآية ١٤.

السيىء، ويُسدل عليه حجاب يمنعه من معرفة الحق عما هو بـاطل. وفي جزاء مثل هذا العمل يقول تعالى:-

﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾.(١)

وهذا الحجاب هو بالتحديد ما اكتسبه بنفسه فأهدر القلب ولوث النفس. ونفس المؤمن المتقي مزرعة لا يترك مزارعها العمل فـيه ولو ليوم واحد، تمنحها الشمس أشعتها وضوءها وتُسقى بالماء في الموعد المناسب. تنظر إليها فتجد كل غـصن مـنها مـحمّل بـمئات الأزهـار والثمار. والإنسان هو مزرعة نفسه وزراعتها ومزارعها. ظهور الأعمال كلها يتم في عالم البرزخ وفي يوم القيامة حيث أن البرزخ هو مطلع القيامة. من هنا، فإن أي إنسان يحمل معه جنته أو عذاب جهنمه منذ الآن. وانطلاقاً من هذا يقول الله تعالى في كتابه الحكيم:-

﴿يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾.(٢)

أي أن الكفار يدعونك لتنزل بهم العذاب وهم في غفلة عن أنه معهم. أجل إنهم يحملونه معهم.

فكما ينساب كل ما هو كامن نحو طور الفعلية فإن الكافر والآثم هما الآخران منقادان نحو نار جهنم وساءت مصيراً:-

﴿والذين كفروا إلى جهنم يحشرون﴾.

ولما كان الذنب هو حطب جهنم وقـد تـوحد مـع النـفس، تـغدو

---

١ – سورة المطففين، الآية ١٥.

٢ – سورة العنكبوت، الآية ٥٤.

النفوس ذاتها وقود جهنم. فنار جهنم لا تضرم بالنفط وبـالبنزين بـل بنفوس الكفرة والمذنبين:-

- ﴿والذين كفروا لهم نار جهنم﴾.[١]
- ﴿وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا﴾.[٢]
- ﴿فاتقوا النار التي وقودها الناس﴾.[٣]

إذا يتوحد مع نفسك كل عمل يصدر عنك فيولد طاقة حركية دائمية الفاعلية تسوقك أما إلى الجنة أو الى النار، فاعلم أن باطن أي شخص في الدنيا هو عين ظاهره في الآخرة. فالأحقاد الكامنة فـي البـاطن يكون ظهورها في عالم البرزخ ويوم القيامة بالتخلق على هيئة الكلب، ويتخلق الماكر على هيئة الثعلب، والمسيء إلى الناس إضراراً أو إيذاء على هيئة العقرب. أحياناً يمضغ ألذ الأطعمة والمأكولات وهو يجهل أن ملكوت هذا الطعام هو النار:-

﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً﴾.[٤]

من هنا، لا يكون الموت فناء بل انفصالاً عما هو سوى النفس. هنا محطة الاتصال بالغير والانتساب إلى الآخرين والاختلاط بهم، وهناك مرحلة الانزواء والاختلاء بأعمال النفس والنظر فيما تم حصاده فـي

---

١ - سورة فاطر، الآية ٣٦.

٢ - سورة الجن، الآية ١٥.

٣ - سورة البقرة، الآية ٢٤.

٤ - سورة النساء، الآية ١٠.

فرصة العمر لترى ما حملت من زاد: عسلاً كان أم حنظلاً؟ نقمة أم نعمة؟ شراباً منعشاً أم سماً قاتلاً:-

- ﴿وكلهم آتيه يوم القيامة فردا﴾.[١]

- ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم اول مرة﴾.[٢]

ولا تنس انك سوف لن تكون وحيداً، لأنك سوف تصحب علمك وعملك فكلاهما عُجِنَ مع نفسك. فما خوف الانسان من الموت إلا خوفه في الحقيقة من عمله.

إنك عندما تتأمل في ملكوت أعمالك لا ترى أعمالاً بعينها، ولكن ما يتوافق معها. من هنا قال تعالى:- ﴿جزاء وفاقاً﴾[٣]، والوفاق من الموافقة وهي مصدر باب المفاعلة وتؤدي معنى المشاركة والانسجام أي أن الجزاء منسجم مع العمل والعمل مع الجزاء. لنقرأ الحديث الرائع التالي في هذا الخصوص، رواه الشيخ الكليني باسناده عن «سدير الصيرفي» عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام:-

«إذا بعث الله المؤمن من قبره خرج معه مثال يُقدِّمه أمامه، كلما رأى المؤمن هولاً من أهوال يوم القيامة، قال له المثال: لا تفزع ولا تحزن وأبشر بالسرور والكرامة من الله عز وجل، حتى يقف بين يدي الله عز وجل فيحاسبه حساباً يسيراً ويأمر به إلى الجنة والمثال أمامه.

---

١ - سورة مريم، الآية ٩٥.

٢ - سورة الأنعام، الآية ٩٤.

٣ - سورة النبأ، الآية ٢٦.

فيقول له المؤمن: يرحمك الله، نعم الخارج، خرجت معي من قبري ومازلت تبشِّرني بالسرور والكرامة من الله حتى رأيت ذلك. فـيقول: من أنت؟ فيقول: أنا السرور الذي كنت تدخله على أخيك المؤمن في الدنيا، خلقني الله عز وجل لأبشرك».

هذه حكاية الأبرار وأما عن انسجام الجزاء مع عمل الأشرار فاسمع عني: تعلم أن المنافق هو الظاهر بمظاهر مختلفة، يتلون في تعامله مع كل شخص بلون خاص. فما هي حكايته في يوم الحشر:

يروي الشيخ الصدوق عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يجيء يـوم القيامة ذو الوجهين دالعاً لسانه في قفاه، وآخر من قدّامه يلتهبان ناراً حتى يلهبا جسده».[1]

من هنا نلاحظ أن هيئتنا في عالم البرزخ وفي يوم القيامة اكتسابية خلافاً لما نحن عليه في هذه الدنيا حيث تنبثق الأولى بحسب الأعمال عن نفس الإنسان وكل يأكل مما اكتسب لنفسه من طعام لا انفصال له عنه. هنالك يخاطب الكافر قرينه وهو ملكوت أعماله مستغيثاً: ﴿يـا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين﴾.

---

١ - ميزان الحكمة، الحديث ٢٠٦٠٦.

«الطموح للقاء الله»

إنك إن تحملت عناء إعداد الطعام ووفرت لذلك أفضل المستلزمات وتكلفت في طبخه، فإنك تأمل أن تجلس إلى المائدة أخيراً وتلتذ من حصيلة أتعابك. والمؤمن كذلك تحمل العناء طوال عمره للالتذاذ من نعماء الآخرة. وموته هو استعداده للجلوس إلى المائدة.. وكيف له أن يخاف الموت؟

لما سئل أبو ذر الغفاري عما هي دواعي عدائنا للموت، أشار إليهم بأنهم أشادوا صرح دنياهم بإبادة آخرتهم، وكل من يرى نفسه متجهاً من العمران إلى البوران يشعر بالضيق والخسران وإننا إن تركنا الدنيا وعنينا بإشادة آخرتنا، فمن يقلقه مضيه من البوران إلى العمران؟

ومن هنا قال تعالى:-

﴿إن زعمتم انكم اولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين﴾.[1]

---

١ - سورة الجمعة، الآية ٦.

فيكون لسان حال المؤمن في الحقيقة هو ما ترنم به الشاعر الشيرازي «حافظ»:-

حـــجاب چـــهره جـــان مـــى‌شود غـــبارتنم
خـوشاد مـن كـه از ايـن چـهره پـرده بـرفكنم
چنين قفس نه سزاى چو من خوش ألحـانيست
روم به روضـه رضـوان كـه مـرغ آن چـمنم[1]

* * *

فإن تعمق السالك إلى الله في الآية التالية:-

﴿وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾.[2]

أنّى له أن يعلق قلبه على مشجب دار الكون والفساد وهـو يـعلم أن سروره في هذه الدار مشوب بالهم وشبابه تـعقبه الشـيخوخة والهـرم وصحته مهددة بالمرض والسقم. من هنا، كان أولياء الله تواقين دوماً لتلك الدار. فاسمع عن سيد عرفاء الكون وهو يقول:-

---

١ - معناهما:

- «غبار جسمي غدا حجاب نفسي، ما أسعد لحظة أزيح فيه الستار عن وجهي».

- «مثل هذا القفص لا يليق بعذب الألحان مثلي، ارحل إلى روضة الرضوان فإنني طائر، تلك روضتي».

٢ - سورة العنكبوت، الآية ٦٤.

«والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أمه بل اندمجت على مكنون علم لو بُحت به لاضطربتم اضطراب الأرشية في الطوى البعيدة».[١]

ولما تلقى برأسه الشريف الضربة من ابن ملجم هتف قائلاً:-

«فزت ورب الكعبة».

فمن هام في جمال المحبوب وكشفت الحجب عن عيني قلبه في هذه الدار فراح يتأمل أنوار الجمال والجلال في كل حدب وصوب، فكيف يمكنه أن يتجلد إزاء لوعة فراق صاحب الجمال والجلال؟ فمثله يستقبل سفير الموت متلهفاً مرتجزاً:-

مژده وصل تو كو كز سرجان برخيزم

طاير قدسم و از دام جهان برخيزم[٢]

فذاك ميقات الحرية، موعد تحليق الطيور الثملة في سكرة وصال المحبوب، تاركاً هذا القفص والزنزانة. إلهي انعم علينا وعلى أصحابنا بمثل هذا التحليق.

---

١ - نهج البلاغة، الخطبة ٥.

٢ - معناه:

- «ارى بشرى وصالك لأطلق إليك نفسي، فأنا طائر حضرة القدس، سوف أحلق تاركاً شراك الدنيا».

«يوم القيامة موعد تجلي الأعمال من باطن النفس الإنسانية»

مر بنا أن أي عمل، حسناً كان ام سيئاً، وبمجرد صدوره عن عامله، وإن تحدد في إطار النية، يتوحد مع نفس العامل، لا انفصال له عن فاعله، أمعن في ما جاء في سورة هود عن لسان حال النبي نوح ﷺ عندما وقعت عيناه على جبل آوى إليه ابنه، وهو يرى المياه تغرق الجبل، نادى فجأة:-

﴿رب ان ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين﴾.[1]

فما كان الرد يا ترى:-

- أجابه الله:-

﴿إنه ليس من أهلك، إنه عمل غير صالح﴾.[2]

أمعن في الآية! لم يقل الله إنه صاحب عمل غير صالح بل قال: «إنه عمل غير صالح». ومرد ذلك أن العمل يتوحد مع الإنسان، ويدخل في

---

١ - سورة هود، الآية ٤٥.

٢ - سورة هود، الآية ٤٦.

كينونة نفسه. فبناء نفسك ورقيها يتحقق في ظل العلم والعمل، وبدنك الأخروي إنما ينمى من هذه النفس. سأتيك بمثال حول ذلك الهيكل:

الخيوط الطولية في نسيج القماش تسمى «السدى» والخيوط العريضة «اللُحمة»، وجودة القماش تتوقف على جودة سداه ولحمته، والقماش يكون تجلياً لها. النفس أيضاً يتوقف وضعها على علم الإنسان وعمله.

ومثال آخر. لتكوّن أي جسم يستلزم مادة (هيولى) وصورة (مظهر). وكمال أي جسم وجماله يتوقفان على جودة كليهما. فلصنع كرسي ما، أنت بحاجة إلى مادة تتمثل في الخشب أي أنك ملزم أولاً بإعداد خشب ذي جودة عالية ثم يتوجب عليك توخي منتهى الدقة في إبداع صورته ومظهره. سوف يكون الكرسي ممتازاً فيما لو تم هذان العملان على هذا النحو. فمادة هيكلك الأخروي هو علمك ومظهره هو عملك. أمعن في هذا الحديث:

يروي الشيخ الكبير الطبرسي في تفسير مجمع البيان أن معاذ بن جبل سأل رسول الله ﷺ:-

«-يا رسول الله! أرايت قول الله تعالى «يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً...» فقال:

- يامعاذ! سألت عن عظيم من الأمر.

ثم أرسل عينيه ثم قال:

- يحشر عشرة أصناف من أمتي أشتاتاً قد ميّزهم الله من المسلمين

وبدَّل صورهم، بعضهم على صورة القردة وبعضهم على صورة الخنازير وبعضهم منكسون -أرجلهم من فوق ووجوههم من تحت- ثم يسحبون عليها، وبعضهم عُمي يترددن، وبعضهم صم بكم لا يعقلون، وبعضهم يمضعون ألسنتهم فيسيل القيح من أفواههم لعاباً يتقذرهم أهل الجمع، وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم، وبعضهم مصلبون على جذوع من نار، وبعضهم أشد نتناً من الجيف، وبعضهم يلبسون جباباً سابغة من قطران لازقة بجلودهم.

فأما الذين على صورة القردة فالقتات (أي النمامون) من الناس،

وأما الذين على صورة الخنازير فأهل السحت،

وأما المنكسون على رؤوسهم فأكلة الربا،

والعُمي الجائرون في الحكم،

والصم والبكم المعجبون بأعمالهم،

والذين يمضغون بألسنتهم فالعلماء والقضاة الذين خالف أعمالهم أقوالهم،

والمقطعة أيديهم وأرجلهم الذين يؤذون الجيران،

والمصلبون على جذوع من نار فالسعاة بالناس إلى السلطان،.

والذين هم أشد نتناً من الجيف فالذين يتمتعون بالشهوات واللذات ويمنعون حق الله في أموالهم،

والذين يلبسون الجباب فأهل الفخر والخيلاء».[١]

---

١ - الطبرسي، مجمع البيان، ذيل الآية.

فموضوع معية العمل والعامل هو من أمهات المعارف الإسلامية، وظهوره يوم القيامة وكمونه حالياً في نفس العامل، وظهور تجلياته في هذا العالم من أمهات القضايا الفلسفية والعرفانية. إصغ إلى حديث آخر في هذا السياق:

جاء قيس بن عاصم، وهو أحد كبار القبائل العربية، يوماً رسول الله ﷺ وهو يخبره أنه يسكن نواحٍ نائيةً حرمته نعمة زيارته فلينصحه بما يتدارك به بُعده وحرمانه منه ﷺ، فقال النبي ﷺ:-

«إنه لا بد لك يا قيس من قرين يدفن معك وهو حي وتدفن معه وأنت ميت فإن كان كريماً أكرمك وإن كان لئيماً اسلمك ثم لا يحشر إلا معك ولا تبعث إلا معه، ولا تسأل إلا عنه، فلا تجعله إلا صالحاً فإنه إن صلح انست به وإن فسد لا تستوحش إلا منه وهو فعلك».

* * *

إليك حديث آخر أيضاً:-

قال رسول الله ﷺ:-

«وعظني جبرئيل فقال يا محمد أحبب من شئت فانك مفارقه واعمل ما شئت فإنك ملاقيه (وبحسب رواية أخرى، قال ﷺ: قال جبرئيل: يا محمد! عش ما شئت فانك ميت واحبب من أحببت فانك مفارقه واعمل ما شئت فإنك ملاقيه».

الكثير من الآيات القرآنية تؤكد هذا الموضوع وهو أن أعمال الخير

تبني جنتك واعمال السوء عينها وقود نارك. هذا هو العدل الذي وعدنا الله تعالى به:-

﴿وأزلفت الجنة للمتقين، وبرزت الجحيم للغاوين﴾.[١]

واي شيء لا يقرب إلا إذا كان موجوداً من ذي قبل وكل ما يظهر ويبرز يكون له وجود مسبق. ولكن كامن، وكلاهما ينبثق من نفسك أنت. هذا ما تعنيه عبارة ﴿يوم تبلى السرائر﴾، وقال فيه الشاعر الإيراني مولوي:

روز محشر هر نهان پيدا شود
هم ز خود هر مجرمى رسوا شود
دست ويا بدهد گواهى بابيان
بر فساد او به پيش مستعان
دست گويد من چنين دزد يده‌ام
لب بگويد من چنين بوسيده‌ام
پا بگويد من شد ستم تا مِنى
فرج گويد من بكرد ستم زنا
چشم گويد غمزه كرد ستم حرام
كوش گويد چيده‌ام سوء الكلام»[٢]

---

١ - سورة الشعراء، الآيتان ٩٠ و٩١.

٢ - معناها:

يزحم الشاعر بابياته هذه الآية الشريفة:-

﴿اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون».[١]

* * *

التفت إلى قوله تعالى في الآية:-

﴿يوم ينظر المرء ما قدمت يداه﴾.[٢]

لاحظ أنه يقول أنه سيلقى عين ما قدمت يداه أي ما فعله، ويقصد أنه سوف يرى في الحقيقة حسن ملكوت عمله أو قبحه.

ثم أنت تعمق كذلك في الآية:-

﴿وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً﴾.[٣]

← - «يوم الحشر يوم تجلي كل خفي، وهو كذا يوم فضح كل مجرم شقي»،

- «اليد والساق تشهدان بالبيان، تعلن فسادها عند ربها المستعان»،

- «اليد تقول هكذا سرقت، والشفاه تصرح هكذا قبّلت»،

- «القدم يحكي عن زيارته لمِنى، الفرج يعترف بالزنا»،

- «العين تقول: بالغمز هكذا ارتكبت الحرام، والأذن تقول التقطت سوء الكلام».

١ - سورة يس، الآية ٦٥.

٢ - سورة النبأ، الآية ٤٠.

٣ - سورة المزمل، الآية ٢٠.

أنك تجني نفس ملكوت حسناتك بل أضعافها، على قدر ما يليق وشأن فيض الحق تعالى. كحال من يزرع نواة تمر فتدخر له نخلة تثمر آلاف الحبات من التمر سنوياً. هكذا يُحصد خيرها أبد دهرها.

فكم من الناس لا حظّ لهم من معرفة المعاد، استوعبوا حسن الأعمال أو قبحها، ولكنهم يجهلون حقيقة آثارها وملكوتها، يقولون: هذا عمل ضئيل للغاية، أنّى له مثل هذا المردود الحسن أو القبيح، بالضبط كمن ينكر الأثر القاتل لبضع غرامات من السم وقدرتها على إفناء أحشاء الشخص أو أنه لا يصدق أن فصاً من الالماس قد يثمن بسعر لا يتخيله.

قال تعالى:

﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تودّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً﴾.[1]

فالملائكة الموكولة بتدوين سجل أعمالك، في الحقيقة، تكتب ما تمليه عليها، وصفحات هذا السجل هي نفسك التي لا مفر لك منها:-

قال تعالى:

﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى﴾.[2]

ركّز في معنى الآية، فإنها تُنبئُك بأنك سوف ترى عباداتك أو

---

١ - سورة آل عمران، الآية ٣٠.

٢ - سورة النجم، الآيات ٣٩ - ٤١.

خطاياك في هيئة ملكوتية ولكن واضحة معلومة. وحسبك فيما يخص رؤية الأعمال قوله عز وجل في الآية:-

﴿يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾.(١)

وحول ملكوت أعمال البر والشر، أمعن كذلك التفكير في الرواية التالية:

يروي الكليني في كتاب الكافي (باب الجنائز) عن الإمام الصادق عليه السلام أنه أكد أنه سوف يفتح للمؤمن في قبره باب يرد منه رجل لم تر عين المؤمن مثل جماله قط فيقول له:-

«يا عبد الله ما رأيت شيئاً قط أحسن منك فيقول: أنا رأيك الحسن الذي كنت عليه وعملك الصالح الذي كنت تعمله»..

ثم أنه يخرج منه رجل أقبح من رأى قط.

قال عليه السلام: فيقول: يا عبد الله من أنت؟ ما رأيت شيئاً أقبح منك، قال: فيقول: أنا عملك السيىء الذي كنت تعمله ورأيك الخبيث».

إعلم أن حقيقة ومظهر الهيكلين الملكوتيين في هذا الحديث الشريف هما النية والعمل. وهذا هو ما حدثتك عنه في الفقرة السابقة..

أعزتي!

فاز في حياته بالغنيمة من ظفر منها بثروة مربحة أزلية. فالدنيا

---

١ - سورة الزلزلة، الآيتان ٦ ـ ٨.

سوق لإدخار مثل هـذه الثـروات، فـلا سـيئاتك تـدعك وشأنك ولا حسناتك تضيع وتهدر. فانها وإن تحددت بعبارة لفظية سـوف تـحيا وتخلد وتعود إليك بالضبط كما تؤوب أنت الى ربك.

في باب ذم الدنيا جاء في مجموعة ورام ان النبي سليمان بن داود عليه السلام كان يوماً يمضي في ديار مترجلاً مـركبته وهـو يسـتظل بـطيور السماء، والجن والانس اصطفت من حوله يميناً وشمالاً. فمر بعابد من بني اسرائيل أشار إليه بان الله قد وهبه ملكاً عظيماً حقاً.

رد عليه النبي سليمان عليه السلام قائلاً بان تسـبيحاً فـي سـجل أعـمال المؤمن لأفضل بكثير مما وهبه الله لسليمان، فما وُهِب فـانٍ ولكـن التسبيح باق أزلي.

* * *

قال الشاعر:

لا تـحزنن عـلى الدنـيا ومـا فـيها

واحزن على صالح لم تكتسب فـيها[1]

لا تستصغرن شأن عمل الخير وإن كان ضئيلاً ولا تغفلن عن عمل السوء وإن كان صغيراً.. فقد تتحول مدينة إلى رماد بإشعال عود ثقاب.

---

١ – عن كتاب ارشاد القلوب للديلمي، ج ١، ص ٦٩.

هنالك تجتمع مثل هذه الذرات إلى بعض فتوقد لك هذه الصغائر جبلاً من نار:-

﴿وبدا لهم سيئات ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾.(١)

مرت بنا العبارة القرآنية: ﴿جزاء وفاقاً﴾ فالجزاء ينسجم مع شأن العمل. وأنت لا تحصد من بذرة القمح إلا قمحاً ولا من الشعير إلا شعيراً. فالذنوب وقود جهنم والصواب الحور العين وقصور جنتك. فكل ما هنالك ثمار أعمالك وانعكاساتها:-

- ﴿إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾.(٢)
- ﴿ولا تكسب كل نفس إلا عليها﴾.(٣)

فما يمتزج بنفسك في هذه الدار ولا مفر لك منه هو عملك. وبتعبير تأويلي: نارك أو جنتك. فما يصاحبك اليوم دون أن تدركه يُكشف لك عنه غداً.

أمعن التفكير ملياً في الآيتين:-

- ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نُرَدّ ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين. بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو رُدُّوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾.(٤)

---

١ - سورة الزمر، الآية ٤٨.

٢ - سورة التحريم، الآية ٧.

٣ - سورة الأنعام، الآية ١٦٤.

٤ - سورة الأنعام، الآيتان ٢٧ و٢٨.

فكتاب أعمالك لا تحمله بيدك، بل في نفسك. وسوف ترى آنذاك ما كان متوحداً مع نفسك معروضاً أمامك:-

﴿كل انسان إلزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً، إقرأكتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾.[1]

هنالك ينبهر الإنسان لعظمة الدقة المتوخاة في تسجيل الآثار والمردودات المدخرة في النفس. فيدعو بالويل والثبور على نفسه معترفاً بأنه لا يرى ذرة من أعماله وحتى أفكاره وتصوراته إلا وقد درجت في هذا السجل. فينادي وا حسرتاه! وأسفاه!

﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً﴾.[2]

تأمل بتركيز أكبر في هذه الآية، لا سيما عبارة ﴿ووجدوا ما عملوا حاضراً﴾ لتتنبه إلى أن هذا السجل حاضر حتى في نفس هذه الساعة بفارق أنه في يوم الحساب يتم فتحه وتتجلى مضامينه.. أما اليوم، فان آثار العتمة والشك والريبة والضيق تترسخ، ومنذ الآن، في نفس الكفرة والمذنبين.. ونور الانشراح والتفاؤل ورحابة الصدر يعم نفس المؤمن. وهذا ما تعنيه الآية:

---

١ - سورة الإسراء، الآيتان ١٣ و١٤.

٢ - سورة الكهف، الآية ٤٩.

﴿من أعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكاً﴾.[١]

جئتك في هذا المجال من بحثي بكلام عن معرفة النفس الإنسانية لتستوعب مدى تمتع نفسك بالصحة، ولتعلم انك مهندس صرح نفسك منذ أوان بلوغك، فادنى القبائح والمحاسن تدخل في بنائه. وتخرج مع الموت من طور الكمون إلى طور الفعلية والظهور فلا سبيل لتغييرها إلى الأبد. فمنذ اليوم توخ الدقة في أمر مصيرك ولا تهدر دقيقة من وقتك إلا وأنت تبذل ما بوسعك لبناء نفسك، فلا علم لنا هل لليوم غد أم لا؟

وكان علي بن الحسين عليه السلام يتمثل ويقول:

ومن يصحب الدنيا يكون مثل قابض
على الماء خانته فروج الأصابع

---

١ – سورة طه، الآية ١٢٤.

«أعظم تجليات الحق»

ذكرت فيما مضى من هذه السلسلة أن العالم حضرة تجليات الحق تعالى. ولكن اعلم أن أسمى تجلياته تظهر في قلب المؤمن. فهل انت راغب في الاهتداء إلى الله بالنظر في عرشه؟ اما تعلم ان عرشه في قلبك أنت. فماذا تتقصى في الآفاق؟! والآفاق تضمحل وتغيب عن الأنظار إزاء عظمة نفسك.

ذات يوم سأل إعرابي الإمام علياً عليه السلام عن المسافة إلى عرش الله فأجابه بأنها على قدر ما يستغرقه العبد المؤمن بقوله: «لا إله إلا الله» إن انبثقت عن إخلاص لله حقاً. فبهذا يفهم الإنسان معنى «هو معكم أينما كنتم». فإن كنت ممن يقدر نفسه حق قدرها، تتنبه إلى عظمة نفسك من خلال الحديث النبوى الشريف:-

«إن الله تعالى خلق آدم على صورته».

ولكن لا بد من معرفة ما هي حقيقة النفس الإنسانية أو قلبه؟ فالمقصود من هذه الألفاظ جميعاً شيء واحد وهو ما تعبر عنه أنت

بـ«أنا». أمعن التفكير في هذا «الأنا». من هو أو ما هو؟ من أين انطلق وجوده؟ أين كان. ومن أين أتى؟ ما هو دوره. إلى أين مبتغاه؟ فمعرفة النفس هي في الحقيقة، الكشف عن هذه الأسرار. فإن اتـصلت بـمثل هذه المعرفة تكون قد حققت هدفك، فقد قال:-

«من عرف نفسه فقد عرف ربه».

الآن وقد بلغنا هذه المرحلة. تأهب لتعرف الأقرب إليك من جميع الموجودات. ذلك القريب الذي أنت ذاته وهو ذاتك. تقصيث الطـريق إلى حيث شئت واستوعبت كل شيء وما تنكرت إلا لمعرفة نـفسك. أرخيت الرحل في منازل السماوات والأرضـين، اسـتطلعت كـل دار ومكان، تعرفت إلى جميع المخلوقات والكائنات ولم تعرج بـعد إلى دارك. رغم أنك سمعت نداءه تعالى يقول: ﴿عليكم انفسكم﴾.[١]

واعلمن أن «أنا»ك غائبة لفرط ظهورها، ربانية. ومن الله أخـذت صبغة فهو باطن في عين ظهوره وعال في عين دنوه وقريب في عين علوه: «يا من علا في دنوه ويا من دنا في علوه».[٢]

فكما أنّ ذات الحق تعالى تظهر في كل موقع بتجلٍ خـاص فـإن الروح والنفس أيضاً تتلبس في كل عالم بهيكل معين. وتجليها في هذه الدار أي عالم الطبيعة يكون ببدنك. حذارِ أن يختلط أمراهما عليك، أو تجعل نصيب بدنك من العناية أكبر مما توليه لروحك ولنفسك.

---

١ - سورة المائدة، الآية ١٠٥.

٢ - من دعاء الجوشن الكبير.

لا تغفل في غياهب عالم الطبيعة عن هذه الإشارة الالهية وهي باب يهديك السبيل إليه. إذ جاء في حديث شريف رواه أبو بصير عن الإمام الصادق عليه السلام، أذكره لك من كتاب الكافي للكليني:-

«المؤمن أخو المؤمن كالجسد الواحد إذا اشتكى شيئاً منه وجد ألم ذلك في سائر جسده وأرواحهما من روح واحدة وأن روح المؤمن لأشد اتصالاً بروح الله من اتصال شعاع الشمس بها».

واعلمن أن الحق لا يُنقِصه كثرة جوده وكرمه. هكذا هي حقيقتك أنت أيضاً، فما بالك مهما تبذل من معارفك وعلومك للآخرين لا تستنفد منها شيئاً، وكلما ازددت للعلوم اكتساباً يتسع استيعابك الوجودي لها بينما يضني حمل الأثقال جسمك ويزداد عجزاً عن رفعها بزيادة وزنها؟

إنك تتعرف على كل الأشياء -مهما كانت- بنفسك، فكيف لمن لا يعرف نفسه أن يعرف حقيقة سائر الأشياء. صدَق أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام في قوله:-

«من جهل نفسه كان بغيره أجهل».

أو قوله في حديث آخر:-

«من عرف نفسه فهو لغيره أعرف».

نستوحي من هذا الكلام أن المعرفة الصحيحة لعالم الوجود هي معلول وحصيلة معرفة النفس. وهذه إشارة لطيفة حول المعارف الحقة فيما لو أحسنت استيعابها. ولكننا نتساءل الآن: لماذا يغفل الناس عن

تحصيل معرفة النفس رغم كل هذه التأكيدات حولها. فيتقصون جميع المعارف ويصرفون حياتهم حتى في معرفة أمور لا دور لها في حياة الإنسان بتلك الأهمية مثل معرفة دورة حـياة كـذا حشـرة أو حـياة الدواجن أو الأسماك تاركين معرفة نفوسهم وراء ظهورهم؟

«نسيان الذات معلول نسيان الله»

هذا ما يؤكده الله سبحانه وتعالى بوضوح في الآية:-

﴿نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾.[1]

فمن تخبط في مثل هذه البلية، وجهل حقيقة نفسه، لا يميز درب السعادة عن الشقاوة ولا صحة نفسه عن سقمها.. لا يميز بين الطعام والسم، فكلاهما سيان عنده. يريد أن يمضي في حياته دون أن يعير اهتماماً لما يحل بالنفس في مسيرة الحياة لأنه نسي الله.. والفرقان معلول التقوى، والتقوى حصيلة معرفة الله. فمن لا يعرف الله لا يقوى على فصل الخير عن الشر.. فقد خملت فطرته الزكية. والملفت أن الله تعالى أتى على ذكر جميع هذه الاشارات في الآية الآنفة والآية التالية:-

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، أولئك هم

---

١ - سورة الحشر، الآية ١٩.

الفاسقون﴾.[١]

فالمسترسل في اقتراف الذنوب دون ان يرتدع أو يتداركها بالتوبة يكون قد غفل بلا أدنى شك عن ذكر الله. عندئذ ينسى نفسه ومصيره أيضاً ولا يتأمل في حاله. وإن فعل لا يعرف ماذا أدخر لغده! لأنه لم يحمل علم الله ومحاسبة الله له على محمل الجد. الآية الآنفة تعرض مرتين لموضوع التقوى، وتشير كذلك إلىإحاطة الله بأعمالنا وأفعالنا.. فكل هذه الأمور ترتبط مع بعض.

فمعرفة النفس الإنسانية هي معرفة الذات، ومعرفة الذات هي معرفة ارتباطها بالله، ومعرفة الارتباط تزيل الغفلة، وإزالة الغفلة هي الوصول إلى ذاته جل وعلا، والوصول إلى ذاته هي عين السعادة.

الإشارة الأخرى هي ان جزاء العمل يكون عادة كما مر بنا تجلياً للعمل نفسه:

- ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾.

وقد قال الله تعالى:-

- ﴿إن تنصروا الله ينصركم﴾،

و﴿يحبهم ويحبونه﴾،

و﴿اذكروني اذكركم﴾.

وقد مر بنا الحديث:-

- ﴿من كان لله كان الله له﴾.

---

١ - سورة الحشر، الآيتان ١٨ و١٩.

كانت هذه نصوص حول توافق أجر العمل مع العمل نـفسه. الآن وقد علمت ذلك أمعن التركيز في الآية:-

- ﴿نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾.

من سياق الآيات والروايات الآنفة لابد أن نخلص إلى أن:

مثل هؤلاء الأشخاص نسوا الله ونساهم الله بدوره.. فجزاء نسيان الله هو نسيان النفس أي ان الله في الحقيقة أوصد الأبواب إلى درب المعرفة في وجوههم.

وبتعبير آخر من لم ينس الله بدا له عز وجل بمعرفة نـفسه فـهداه السبيل من عتمة عالم الطبيعة الى مناهل النور وما أقصره من طريق! إنه الطريق الذي يلوح لك من عبارة ﴿أقرب إليه من حبل الوريد﴾، فبهذه المعرفة يتضح لسالكي درب المعرفة مفهوم: ﴿هو معكم أيـنما كـنتم﴾. والسر في ذلك هو أن مرآة النفس أكثر جلاء لذات الحق مما سواها، فأنت تهتدي لضالتك التي تقصيتها أعواماً وأعواماً بـنظرك فـي هـذه المرآة.

فهذه المعرفة مرآة تهتدي بها إلى نـفسك فـي وجـود ربك فـترى الوجود المحض في الله.

عسى أن يهب الله قلبك عيناً إلهية يرى بها الحق تـعالى، عـندئذ تعشقه بل تستميت في حبه وتتوله في صفاته وتعرف بالتالي المفهوم الحقيقي لاسم «الله».

«من أنا في هذه الرحاب؟!»

بمثل هذه الاستفسارات دعنا نتقدم معاً خطوة في هذه الجادة؟ إنني أعرف تاريخ ميلادي وأذعن بأنني لم أكن شيئاً قبل عام من ذلك! في أوان شبابي كنت مستأنساً بالقرآن فأجدني كلما قرأت الآية التالية تتملك على انتباهي. فمفهومها رغم وضوحه محطة مناسبة للتفكير والتأمل:-

﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً﴾.[1]

من جهة أخرى فإنني أنفر من الموت مع وثوقي بأنني على موعد مع الموت يوماً. لم آت مختاراً ولن أرحل مخيراً. في هذه الدنيا أعلم أن لي جسماً ورغم كوني شخصاً واحداً إلا ان جسمي يتكّون من: رأس وساقين ويدين وجذع ولي حواس خمس وأحشاء قد لا أقوى على مواصلة الحياة دون أي منها. كما لم يكن لي دور في بناء أي من هذه الأجزاء.

---

١ - سورة الدهر «الانسان»، الآية ١.

وأجهزة جسمي تتكون من ملياردات من الخلايا الحية التي لا أعرف شيئاً عنها ولا هي عني. جسمي في الواقع قارة تعددت أقطارها ولكل منها شعب يختلف عن سواه، وينطق بلغة غير لغة بقية الشعوب. قرأت أن سكان قارة جسمي لا عد لهم ولكن يمكن كتابة عددهم بوضع (١٣) صفراً أمام العدد (١). هذا هو حساب خلايا جسمي، وكلها تلتزم قانوناً موحداً رغم تباين انواعها وإقامتها في بلدان الجسم المختلفة، كلها تعمل لصالحي كلها تخدمني رغم أنني لم التقها حتى الآن. وكل هذه الملياردات من سكان هذه البلدان مع أنهم ليسوا على ارتباط ببعض عادة ولم تجلس إلى طاولة مشاورات ومفاوضات قط ولكنها تُسدي خدمات لبعض، تتعامل مع بعض، تتوادد مع بعض.

ودون أن تتلقى أية أوامر مني كلها تساهم في ديمومة حياتي. لا أعلم من أين لها كل هؤلاء المورِّدين. لم يكن لي أي دور في توظيفهم مع أنهم جميعاً يعملون لتلبية احتياجاتي. لم أُلحق أياً منهم بمدرسة ولكنهم برعوا في مهارتهم حتى أبهرني منهم انهم بلغوا درجة من التعاون والتعاضد معاً حتى يخيل إليك أنهم مغرمون ببعض. ولكني عندما أمعن في باطنهم أجدهم مولهين بي أنا بينما لم أُسدِ لهم أية خدمة أو أؤدي لهم أي عمل حتى الآن كل ما أفعله هو أنني أبعث عدة وجبات من الطعام إلى مملكة معدتي فيسارع سكانها فوراً لأداء وظيفتهم في حركة سريعة ودؤوبة.

والكبد مملكة أخرى تقع إلى جوار المعدة وتتصل معها بطريق خارجي يسمّى «كيس الصفراء». وهي تلبي احتياجات المعدة مسبقاً

فتصدّر إليها كل ما تحتاجه. ولمملكة الكبد مختبرات عظيمة وظيفتها أداء عمليات كيميائية يبلغ عددها السبعمائة كما يقال. أثبت العلم أن مملكة المعدة تلبي حاجتها عن طريق الكبد.

كل ما نفعله هو أننا نبعث أنواعاً من الأطعمة ومنها: الألبان واللحم والخضار والبقول إلى مملكة المعدة ونعقبها بعدة أكواب ماء أيضاً. لا علم لنا عما يحدث هنالك بالضبط. الجهاز الهضمي يأخذ منها ما يسد به احتياجات قارة الجسم ويطرح ما زاد عن ذلك إلى أنابيب طرح الفضلات.. ونحن في غفلة عما يجري في هذه القارة أساساً. كل هذه العمليات تجري دون أن يسيّر الجسم بأي تحكم منا. هكذا تسترسل هذه الممالك في عملها، تحول الأطعمة بما تنجزه من تفاعلات كيميائية إلى بروتين وكاربوهدرات و... تبعثها إلى جميع ممالك جسمنا. تفكك المواد الكلسية والكبريت واليود والحديد عن بعض بأعين غير مرئية دون أن نهدر ذرة منها ثم يتم تقسيم هذه المواد بين بقاع هذه القارة كل حسب مقدار حاجته. وتدخر الدهون، والكاربوهدرات والسكريات (بعد تحول الأخيرتين أيضاً إلى دهون) في مستودعات خاصة، ليسد بها جسمي حاجته عند الضرورة. وأنا لا أفهم ماذا يجري في داخل جسمي ومتى تتم هذه العمليات. والأكثر إثارة للدهشة هو أنها تهضم كل ما أقدمه لها ولكنها لا تهضم نفسها. أراني ممتناً لها دون أن أتقدم لها بالشكر حتى مرة واحدة إلى الآن. لم أفهم حتى هذه اللحظة من فوضها لخدمتي؟!

ما هذا الشريان النابض؟

متى ما أضع إصبعي على شريان من شراييني، منذ بداية حـياتي، سواء كنت في الحضر أم السفر، نائماً أو مستيقظاً، مستلقياً أم جالساً أم واقفاً، أجده نابضاً أتتبع مسيره فأرى أنه أحد الطرق الخـارجـية لمملكة قلبي، فما أعظمها من مملكة! سكانها جميعاً في حركة ونشاط دؤوب، لا يعرفون للهدوء والراحة معنى. نعلم أن ربنا العظيم حي قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم، وسكان هذه المملكة أيضاً أرباب بحد ذاتهم!

مليارات من هؤلاء السكان آلت على نفسها منذ بداية حياتي أن تبدأ حركتها معاً وتنتهي عند حد معين. وتمخضاً عن هذه العـمليات كلها ينبض قلبي، إنها ترتبط بجميع أرجاء قارة أبداننا عن طريق معابر الشرايين. الشرايين هي الطرق ألخارجية السريعة والعروق الأصغر منها طرق داخلية والشعيرات الدموية هي المسالك الفرعية؛ إنها الطرق التي يلبي عن طريقها جميع سكان قارة جسمي احـتياجاتهم. والمـدهش أنهم يتكافؤون من حيث احتياجاتهم، فـلسكان كـل مـن أظـافري،

عظامي، شعري وعـضلاتي حـاجة خـاصة ولكـنهم جـميعاً يـلبون حاجتهم تماماً من خلال هذه الشبكة. لا بد أن أشكر قلبي أيضاً. إلا أنني، للأسف، لم ألتقه هو الآخر إلى الآن لأسأله مـا هـو السـر فـى معرفتنا البعض منذ بداية حياتي وإلى الوقت الحالي؟ من جَبَلك على مثل هذا العمل؟ أي رحيم رؤوف؟! أي عالم واع؟! أي قدير مطلق؟!

رحلة إلى مصفى الكليتين:

الدم يصل إلى هذا المصفى. جميع سكان هذا المصفى وكذلك العاملين فيه من ذوي الاختصاص. تزامن نيلهم الاختصاص مع ميلادي. ولكني لا أعلم من أية جامعة! الحقيقة أنهم لا يطلعونني على السر وكل ما أعلمه هو أنني لن أواصل الحياة حتى يوم واحد لولا هذه المملكة.

فالدم، وهو المادة الحياتية التي تحفظ جميع خلايا جسمي من التلف، تتم تصفيته هاهنا. يصب في هذا الموقع ملوثاً ويغادره نقياً. فتلوثاته يُبعث بها إلى مجاري البول وما يصفى منه يعود ثانية إلى القلب.

ذات يوم وأنا أتابع عمل جهاز التصفية للمرضى الكلويين استوعبت مدى روعة جهاز الكليتين! ما أعظم ما يقدمه لي من خدمة! الحقيقة أنني لا أعلم إلى الآن سبب إخلاص سكان مملكة كليتيّ لي. إنني لم أُسدِ لهم أدنى خدمة. أنا نفسي لا استوعب عملهم المفيد، ماذا عنك؟

في رحاب مملكة الرئتين:

كلما أمعن التفكير في نفسي أجدني أحوج إلى الهواء من أي شيء آخر. وما أكثر حاجاتي أنا المسكين! انني سوف أهلك وألاقي حتفي بمجرد حرمان جسمي من الهواء ولو لدقيقة أو دقيقتين والرئتان ما زالتا تواصلان تلبية حاجتي إلى الهواء منذ ولادتي تأخذان من الهواء الأوكسجين وتسلمانه إلى الكريات الحمر في دمي. فيحمل هذا الجيش الجرار الأوكسجين فتتكفل الكريات بانجاز عملية مد سكان قارة وجودي به بأسرع ما يمكن خلال شبكة عروقي وشراييني. ثم أنها لا تنسى أبداً أن تحمل نفاياتها وتعود بها إلى الرئتين لتطرح هذه السموم هناك. إنها كسكان مملكة قلبي تعمل بلا هوادة طوال حياتي ودون سكون. والملفت للانتباه أنني عندما كنت في رحم أمي كانت رئتا أمي تلبيان حاجتي، وبمجرد ولادتي، أي منذ لحظة انقطاع الحبل السري عن أمعائي استهلت رئتاي، اللتان كانتا قد اكتسبتا استعدادهما للعمل من ذي قبل، عملهما دون أن أبعث لهما أي أمر أو إيعاز ببدء نشاطهما. الحقيقة أنني يوم بدأتا عملهما لم أتنبه لذلك، وأنا اليوم أفكر وأنجز أعمالي اليومية ولا علم لي بما يجري هناك. ولكنها إن غفلت

عني للحظة واحدة سوف تنتهي حياتي فوراً.

ونحن نجد أن أول نعمة يذكرها الشاعر الشيرازي سعدي في ديباجة كلستانه هي نعمة نشاط الرئتين حيث يقول:

«كل من الأنفاس يمنح الحياة عند سحبه وينفّس عن الذات عند طرحه. إذاً، في كل نفس نعمتان. وكل نعمة تستوجب شكراً» ثم يردف:

از دست و زبان كه بر آيد

كز عهده شكرش به در آيد؟![1]

* * *

---

١ - معناه:

- «فمن ذا الذي يمكنه ان يحسن أداء حق شكره بيديه ولسانه؟»

الحواس:

اترك هذه المجالات ولها استيعاب ملء مئات الصفحات، لئلا تقول كأنه يقدم دروساً في التشريح، وإلا فـإن مـوضوع الأعـضاء واسـع متشعب.

ما كان مني هو حديث عن عـالم البـاطن، فـماذا عـن الخـارج؟ ارتباطي بالعالم الخارجي يتم عن طريق الحواس، فلولاها لغدوت في غفلة تامة عن العالم الخارجي. وأهم أجهزتها جميعاً هي العين. فالعالم الخارجي يرد إلى باطني عن طريق تجويفي عيني. فأداتي ووسيلتي لمعرفة جميع الأشياء: النـباتات والحـيوانـات والجـمادات، قـبيحها وجميلها، صغيرها وكبيرها، وعلى اختلاف ألوانها هي العين أكثر من سواها. كيف ارى كل الأشياء ثم أفكر بما أرى؟ علم الفيزياء يشرح ذلك بكذا أسلوب وعلم التشريح باسلوب آخر، ولكن الحقيقة هي أننا نحكم على ظاهر الأمور ولا نعلم ما هي حقيقة الرؤية؟ بـؤبؤ العـين يتكون من تسعة وريقات لو اجتمعت إلى بعض لما كانت حتى بسمك أية ورقة خفيفة: الداخلية منها تتكون من العصيات والمخاريط وهي خلايا العين. عدد الأولى منها يبلغ ثلاثين مليون عصية والثانية الثلاثة ملايين. والأكثر إثارة للدهشة أنها كلها تدير ظهرها للعين أي أنها تنظر

إلى الدماغ بدلاً من أن تتوجه إلى الأمام لترى العالم الخارجي.

تتكون لأي شكل صورة مقلوبة في الدماغ ولكن ملايين الخلايا والألياف العصبية تتكاتف مع الدماغ لتصلح وضع الصورة. البؤبؤ يواصل انتقالاته وتغيير سمكه حتى يتمكن من تركيز الضوء النافذ إلى العين بالشكل المناسب. إنني أتمتع حقيقة بنعمة الرؤية! هل صنعت بنفسي جهاز البصر هذا الذي لا أحيط علماً بتمام ما يجري فيه؟! إنه يرافقني منذ ميلادي ويمكنني من التعرف على العالم الخارجي. صوبت نظراتي إلى الخارج فاقحمت العالم إلى باطني عن طريق هاتين العينين. وكل ما استدخلته عن طريقهما ما زال موجوداً، حاضراً في ذاكرتي. فبمجرد أن أنوي، استحضر كل ما أدخلته منذ ولادتي إلى باطني من هذا الطريق فأنظر إليه ثانية، كل شيء، حتى الأموات، وبمظهرهم في حياتهم، وكذلك مظهر الانقاض في زمان عمرانها. احتفظ للجميع بصورهم أحياء وإن ماتوا في العالم الخارجي.. والجمادات عامرة في ذاكرتي وإن تحولت أنقاضاً. أغلبية اساتذتي التحقوا بربهم منذ سنين ولكن دروسهم بل بعض عباراتهم وحتى نغمة أصواتهم ما تزال حية في كياني. من أنا ذا بهذه الخصائص؟ كيف يحيا هؤلاء الأموات والراحلون في باطني؟!

كيف أحول أفكاري ومعلوماتي، وكلها من المجردات، إلى أمواج صوتية؟ كيف أبعث الحياة في تلك الأمواج والأصوات؟ امنحها معنى ومفهوماً، إنها ليست كأمواج أصداء المنشار والمطرقة. إنني أصب المفاهيم في قالبها. أتخلق الصوت في حنجرتي، أرسله إلى فمي

وأخلق حوالى ثلاثين حرفاً بدعم عضلة لساني وسقف فمي وأسناني وشفتيّ، فاصنع من هذه الحروف كلمات ومن الكلمات عبارات وجمل، أُفَبْرِكُ بها معلوماتي المجردة. ربما يتواصل هذا الابداع ويستمر لساعات. من المتعهد بهذه العملية، هذه الخلايا وحدها أم موجود آخر يستقر في قالب جسمي؟ لا أفهم ولا أعلم من أنا؟

إنني استدخل الأصوات الخارجية. صوانا أذني مخلوقان بوضع فيزيائي يمكنهما من تحديد جهة الصوت. حتى لاقطات الصوت الدقيقة مازالت تصنع في شكل نصف دائرة تشبيهاً بصوان الأذن. أنا أفهم كلام الآخرين من خلال ما يخلقونه من هذه الأمواج الصوتية وأودعه في ذاكرتي، أحقاً كل هذا من صنع خلايا جسمي؟!

لقد منحنا الله قدرة التفكير والتأمل. إنك إن تابعت مسيرة هذه الاستفسارات والتقصيات فإنها سوف تنتهي بك إلى ديار المحبوب.. تنكشف لك الحجب فترى جماله. هكذا تكافأ ثواب ساعة من تفكيرك مع ثواب سبعين سنة من عباداتك.

ظاهر الإنسان وجسمه هو الأكثر تجرداً من وسائل الدفاع قياساً إلى جميع الكائنات الحية فجلده خلافاً لبقية الأحياء خالٍ من الصوف، من الشعر، من الريش، من القرون المدببة، من الأظافر القاطعة، من الأسنان القاضمة، من أجنحة مرفرقة أو أبر لاذعة.

أما عن بداية حياته فيقول الشاعر سعدي:

مرغک از بیضة بیرون آید و روزی طـلبد
آدمی زاد نـدارد خـبر و عـقل و تـميز[1]

هذه حكاية ولادته وبداية حياته. والسؤال هو مـن يـرافـق هـذا الموجود ويأخذ بيده وهو يخلق كل هذه التحولات في العالم ويبدع كل هذا التغيير في الكرة الأرضية التي ولد فيها؟ يسـتخرج الذخـائر المطلوبة ويستثمرها بألف نحو، بينما الحيوانات مع كل المزايـا التـي ذكرناها آنفاً ظلت على ما هي عليه منذ عهد ما قبل التاريخ. ما زلت كما كانت قبل مـلايين السـنوات بـنفس الوضـع المـعيشي والحـياة الاجتماعية أو الفردية. فماذا يميز الإنسان عن الحيوانات؟ وهل جاز ما جازه من نفسه أو من غيره؟!

حسناً إنك صرت تذعن لعظمة باطنك على ما مر بنا من حـديث وتنبهت إلى أن كل هذه المواهب والقابليات الجسمية والنـفسية دون استثناء غير اكتسابية، خارجة عن نـطاق تـحكمك. فـلا القـلب ولا الكليتان ولا الرئتان ولا معدتك لم يبدأ أي منها نشاطه بأمر منك، ولا تواصل أداؤها الوظيفي بتحكمك فيه. إنك على أية حال، لا تقوى على التحكم بحياتك ولو للحظة واحدة:

﴿ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نـفعاً ولا يـملكون مـوتاً ولا حـياة ولا

---

١ – معناه:

– «الفرخ ينطلق من البيضة باحثاً عن الرزق، ومولود الإنسان في غفلة عن هـذا، بعيداً عن العقل والتمييز».

نشوراً﴾.[١]

وكل انسان يستوعب يجد أن حياته بأسرها ترتبط بالغيب، هناك يد غيبية تلعب دوراً في حياته. وجوده احتياج محض سواء فيما يتعلق بباطن جسمه أو خارجه.

أدركت وضع باطنك وفقرك الوجودي. فدعنا نهيم في العالم الخارجي.فإن كنت لم أثقل كاهلك بعد اصحبني نتأمل في العالم الخارجي. هل توافقني؟ إن كان جوابك بالايجاب، توكل على الله.



---

١ - سورة الفرقان، الآية ٣.

عالمي الخارجي:

مهما بالغت في الإمعان في باطني لم أر فيه إلا ما يوحي بعظمته.. لم أشاهد كل هذه العظمة إلا في نفسي. والآن تنبهت إلى أن حياتي الباطنية تتوقف على حياتي الخارجية فلولاها لتعذرت عليّ مواصلة الحياة.

العالم الخارجي كذلك لم أكن دخيلاً في خلقه ولا أعرف بالضبط تاريخ ظهوره، لا دور لي في اعداد مستلزماته. والملفت أن مظاهر العلم والعالم تتجلى إليَّ من كلا العالمين الباطني والخارجي.

في بحثنا حول الآفاق ذكرنا أن العالَم يعني عالم العلم.

ويؤكد الشيخ الأكبر ابن عربي بأن لفظة العالَم مأخوذة من العَلَم، والعلم هو الآية والعلامة. والعالَم في الحقيقة هو تجلي العلم الذي ينبىء عن وجود العالِم.

الهواء والجو:

دعني أبدأ من الحاجة الأمثل. إننا سوف نلاقي حتفنا لو حرمت رئتانا من الهواء لدقيقتين. خلايا أبداننا بحاجة إلى الاوكسجين. الرئتان تواصلان العمل دون كلل أو توقف. فديمومة حياتي رهن بما ترفدني به رئتاي من هواء. وجو الأرض يتركب من خليط من الغازات: الاوكسجين والكاربون والنيتروجين (الازوت) وغيرها، جسمي يستهلك اوكسجين الهواء ويطرح الكاربون إلى الخارج أي أنني عامل تلويث بالنسبة لجو الأرض. أنا والملياردات من سواي من بني الانسان والحيوانات كلنا نلوث الجو. وأرى أن الموجودات الأخرى أي النباتات تتعهد بعملية أخرى خلافاً لنا. إنها تجذب الكاربون وتطرح الاوكسجين. فمنذ بداية الخلق وحتى الوقت الحالي تتواصل هذه العمليات ونسب مكونات الهواء ثابتة لا يحدث فيها أي تغيير.

أنا أعلم أننا وكذلك من سبقنا من الناس في الحياة على هذه الأرض لم نكن بذي دور مسير في هذه العمليات. حتى الأجيال السابقة كانوا في غفلة من الوضع الكيميائي في هذا المصنع العظيم. فالشاعر سعدي مثلاً وإن كانت فيزيولوجية التنفس مجهولة في عهده، أحسن قوله فيما يخص حاجته إلى التنفس المطلوب. والملفت انه

ولكون هذه الحاجة من أهم احتياجات الانسان ارتأى أن يبدأ كتابه «كلستان» بالإشارة إليها:

«كل من الانفاس يمنح الحياة عند سحبه وينفّس عن الذات عند طرحه. إذاً، في كل نفس نعمتان. وكل نعمة تستوجب شكراً. فمن ذا الذي يمكنه أن يحسن أداء حق شكره بيديه ولسانه؟!».

فمع أنه لم يكن على علم بوجود الاوكسجين ودوره في الجسم لكنه اسماه (مانح الحياة) ولا بوجود الكاربون السام ومع ذلك أشار إلى دور الزفير وبأنه منفس عن الذات.

فلو كانت الحياة على وجه الأرض تتحدد بحياة الحيوانات فإن اوكسحين الجو كان سوف ينفذ عاجلاً فيفنى الجميع، وإن تحددت بحياة النباتات فلم يكن هنالك كاربون يسندها، فيتوقف نموها وتجف دون استثناء. أنا لا أفهم كيف يكون كل هذا التنسيق دون منسق واع عالم؟! استغلالي الهواء وهو أهم احتياجاتي الخارجية، فيض آخر مما أفيض به علي. أليس كذلك؟ فما أقبح سلوكنا لو تجاهلنا هذه اليد الغيبية الفياضة!



الماء، ثاني احتياجاتي:

ألقي نظرة أخرى إلى نفسي أجدني بأمس الحاجة إلى المـاء فـي المرتبة الثانية بعد الهواء. فمن الماء تتكون نسبة ٧٥٪ من وزن جسمي. سوف أُلاقي حتفي لو حرمت من الماء لأيام عدة. والملفت هو أنني رغم عظم حاجتي إلى الماء لا أقوى على مواصلة الحياة فيه أيـضاً لأنني في الحقيقة لست من الأحياء المائية وخلافاً لحاجتي الأولى أي حاجتي إلى الهواء حيث احيطت الأرض بطبقة الجو. أي أنني غريق في الهواء ولست بحاجة إلى تأمينه فلا يخلو مجال في الأرض مـن الهواء ليكن بحاجة لتصدير الهواء إليه.

انني أرى توفر المياه بحسب الحاجة في جميع بقاع الأرض أيضاً، فنسبة $\frac{٤}{٥}$ سطح الأرض تغطيها مياه لا تنفعني إذ لا تصلح لا للشرب ولا للري فهي أما مالحة أو مُرَّة. انني أرى يداً غير إنسانية تلعب دوراً في هذا المجال أيضاً. تصفي الماء في مصفى لا للدخان هو مولد ولا للجو ملوث، يمدنا به نقياً، وهذه التـصفية تـتم فـي مـصفى التـبخير الشمسي. إنه فيض ربوبي آخر يرفع الماء الصافي من البحار ليـهطل قطرة قطرة وفي منتهى الروعة واللطف، فيصفيه الجو وتغتسل وتستحم به الأشجار والنباتات وتحيا به الأرض وتمتلىء به المخازن الجوفية

وتنمو الغلال والفواكه وهو بكل ذلك إنما يلبي حاجتي أنا. لا أرى أية يد دخيلة تلعب دوراً في هذه العملية سوى يد الله. والملفت أنني أرى الشاعر سعدي يهتم بهذه الحالة أيضاً في تلك الديباجة فيعرج على موضوع الأمطار والمياه مباشرة بعد موضوع الهواء فيقول:

«امطار رحمته اللامتناهية نال الجميع منها.. أغدق عليهم بعطائه الوارف، لا يمزق حجاب شرف العباد وسرَهم لذنب فاحش، ولا يمحق حق المرتزقين ببابه لخطأ فضيع».

ابر و باد ومه و خورشيد و فلک در کارند
تا تو نانى بكف آرى وبغفلت نخورى
همه از بهر تو سرگشته وفرما نبردار
شرطِ انصاف نباشد كه تو فرمان نبرى[١]

الملفت أن كل هذه المياه الوفيرة في الطبيعة كلها تحمل الصيغة الكيميائية (H2O) أي أنه يتكون من جزيئة اوكسجين وجزيئتي هيدروجين وهنالك مادة أخرى تحتوي جزيئة أوكسجين ثانية أي جزيئة أوكسجين أكثر من الماء تسمى «بروكسيد الهيدروجين» لا

---

١ - معناهما:

- «الغمام والرياح والضباب والشمس والأفلاك كلها في نشاط دؤوب، لتحصل أنت على خبز. فلا تطعمه وأنت غافل».

- «الكل متهافتون منقادون من أجلك جميعاً، فليس من الانصاف أن تكون أنت عن الطاعة عازفاً».

تتواجد بشكل طبيعى في العالم، لأنها مادة سامة بينما نلاحظ وفـرة هذه المادة الحياتية في جميع أنحاء العالم.

إسمع اشارة أخرى:

كل هذه الأمطار لو كانت تهطل على أرض غير نفاذة لكانت المياه أغرقت التربة وجرفتها كلها بعد عدة سنوات فتصبح الأرض كرة مليئة بالماء لا يتيسر لأحياء البرية العـيش فـيها ولو كـانت نـفاذة تـماماً لامتلأت مخازن المياه الجوفية بآبارها وعيونها وترعها وقنواتها. هكذا صار الصلصال منقذاً للإنسانية. إنه في الواقع مادة سليكات الالمنيوم تستقر في أعماق (١٠ – ٢٠) متر من سطح الأرض. متى مـا يـصل الماء إليه يتوقف عنده لأن مشيئة فياض منان اقتضت مثل هـذا فـي تلك الناحية. ولكن.. من هو صاحب هذه المشيئة؟ كأن الكـون كـله فوض لخدمتي. صاحب الدار يحبني! كأنني ضيف عزيز لديه. حقاً من أنا؟ ربوبية أي رب ودود تسير شؤون حياتي؟

جزيئات الماء خلقت بنحو يستدرجها للسير بـتأثير مـن جـاذبية الأرض، فليس هنالك من حاجة لحمله. إنه يسير حثيثاً بين المزارع والحقول اينما فسح المجال أمامه. يعثر تلقائياً على ما تستبطن التربة من حبوب فيرعاها وينميها لتنبثق من التربة وتتعالى ثـم يـنتهي بـها المصير إلى موائد بنى الإنسان.

الثقل النوعي لأي شيء يزداد بانخفاض درجة حرارتـه إلا المـاء فإن ثقله النوعي ينخفض عندما يبرد أي أن ثقل الماء عندما ينجمد

يكون أقل من ثقله في حالة سيلانه، وبهذا تستقر الثلوج على سطح الماء في المحيطات.. وبالتالي تبدأ بالذوبان تحت أشعة الشمس.. ففي غير هذه الحالة كانت البحار والمحيطات تتحول عاجلاً إلى مساحات ثلجية وتفنى قاعدة التبخير، فلا غمام يتكون ولا أمطار تهطل. لا أعرف مدى عظمة مسير هذه الأمور جميعاً.

إن كنت، ايها القارىء العزيز، تعرف اخبرني. دعني أكون أذناً صاغية لك وأنت محدثي لأنال بدوري قسطاً من الهدوء للحظات. أنت بدورك وجِّه لنفسك أحياناً هذه الاسئلة التي أوجهها أنا لنفسي إلا إذا كنت لا تأبه أن ترحل عن هذه الدنيا الفانية قبل أن تتعرف على مُنعمك!

على أية حال دعنا نواصل رحلتنا.

أرى أنني وبدرجة تتلو حاجتي الى الماء أحتاج الغذاء أكثر من أي شيء آخر.

من أين تأتي المواد الغذائية؟

دعنا في مسيرتنا نواكب خطوات الشاعر سعدي (ره) لأنه هو الآخر كان يعني بتسلسل هذه الاحتياجات فأمعن فيما قال:

«المدبر أصدر لغيوم الربيع أمره لترضع بنات النبات في مهد الأرض.. وبهدية عيد الربيع تكتسي رداء الأوراق الخضراء وأطفال الأغصان يغطون رؤوسهم مع قدوم الربيع بقبعات البراعم».

تكتسي الأشجار رداء الأوراق الخضر لتنقي ما استنشقه من هواء وتعتلي رؤوسها قبعات البراعم لتنتج هذه القبعات حبوباً وثماراً تزين مائدتي. أليس كذلك حقاً؟!

أكثر من عشرات الآلاف من أنواع النباتات تنمو على وجه الأرض.. بعضها يأمن لنا البقول وبعضها حاجتنا الى الدهون ومجموعة منها دواء تعالج به آلامنا. وقسم منها يرفدنا بالخشب والحطب، وآخر بثماره من الفواكه. فتضفي تنوعاً على غذائنا الضروري. وأنواع منها تزين حياتنا بألوانها وشكلها. أو تعد المواد الأولية لصنع أوراق مراسلاتنا ومطبوعاتنا أو الطعام للماشية والحيوانات الأخرى. الكتان والقطن ينادیان: لقد نسيتمونا.. منا كسوتكم جميعاً، فإننا مصدر المواد

الاولية اللازمة لكل مصانع الألبسة.

ما أبرع هذه النباتات! إلق نظرة على مائدة طعامك اليوم. تجد ما فيها من خبز (وبقية البقول) أو ألبان ولحم ودهن، كلها تتأتى من بركة هذه النباتات. انظر إلى حذائك وجواربك وملابسك، قبعتك، قميصك، منديلك، قفازك، تجد يد النباتات تلوح بين مراحل إنتاجها وصنعها.

تمهل لنسد الطريق أمام أصحاب العقول المغترة المتحجرة أن تقول: نحن ننمي النباتات لا بالعكس. يمحق الله سبحانه وتعالى أباطيل هذه العقول بخطابه.

﴿أفرأيتم ما تحرثون، أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون﴾.[١]

تصور البذرة في أعماق التربة، أية مراحل يتوجب عليها اجتيازها لتتحول إلى غرسة أو شجرة فتثمر مئات أو آلاف الحبوب والثمار؟ بأية أمور يتحدد دور المزارع والفلاح في هذه التحولات؟

﴿إن الله فالق الحب والنوى﴾.[٢]

على أية حال، تمعن في مائدة الرحمة الإلهية على وجه الأرض. كم نوع من الحبوب تنمو فيها؟ هل بمقدورك أن تسجل حساب أنواع الغلال والبقول؟ ماذا عن عدد الفواكه؟

قد يكون بمقدورنا عد مئات الأنواع من فواكه انتجت الطبيعة بذورها وحتى لا يغيب عن بالنا أن للإنسان دخلاً في تنميتها، ولكنه

---

١ – سورة الواقعة، الآيتان ٦٣ و٦٤.

٢ – سورة الأنعام، الآية ٩٥.

لم يخلق حتى بذرة واحدة من هذه البذور. من يسيّر هذه الأمور يا ترى؟ يقول أحد العلماء بأن الإنسان قادر على مواصلة الحياة وإن اقتصر على نبات القمح في غذائه. إنه، وبمفرده، يكفينا مؤونة، فما لنا وكل هذه النعم الموفورة؟ ومن أين أتت؟ كلما أكثرنا من التفكير تتضح لنا معالم ما وراء الحجب أكثر فأكثر.. ولكن ما هو واضح تماماً لعين القلب من وراء هذه الحجب هو تحكم كريم، رحيم، رزاق وعالم بكل هذه الأمور.

أراني بالطبع ممن يحب الجمال، أنسق ملابسي، وهكذا مظهري العام وحتى منزلي. اتطلع إلى العالم فأرى يد جميل تلوح بصنعها الفاتن من وراء الحجب لتزيل غمام الملل من سماء حياتنا ونزداد حيوية ونشاطاً.

انظر الى السماء فكم من لون ولون يظهر فيها منذ طلوع الفجر وحتى طلوع الشمس. ما كل هذه الألوان في عالم الطبيعة؟ يد أي رسام بارع تبتدع هذه اللوحات؟ ذات الجميل تتجلى من خلال مئات من هذه اللوحات. عسى أن تكون هناك عين تبصرها بهدى الله.

يا ترى هل تنبهت إلى السماء وكم يوحي لونها بالهدوء؟! وما عظمة السر الذي تلمحه في جمالها الدفين إن تأملتها في ليلة بدرية والهدوء يخيم على كل مكان. لك في لمعان النجوم وتلألؤها كفاية عن النظر إلى بقية أرجاء السماء؟

ما أطرب لحن خرير الماء وما أعذب تغريد البلابل! ما هو السر فيانتعاش الأزهار؟ هل يكمن فيها سر غير همسة ملكوت الأشياء في

أذني بأنني ذو جمال مثلما أنا ذو كرم.

كأنني أطلت المقام في هذه المحطة. والله انني أهذر فلو عـزمت على عد النعم حتى آخرها لما كان لي مخرج من هذه المحطة أبـداً، فقد قال تعالى:-

﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾.

أمهلني أخبرك عما أريده من هذه الموضوعات لأشد الرحال بعد ذلك وإن كنت نلت نصيباً لا بأس به من هذه المحطة.

التفت إنك لم تكن ذا أدنى دور في أمور باطن جسمك وحياتك ولا في تأمين احتياجاتك من العالم الخارجي. غيرك تعهد بطهي مئات من الأطعمة، ولكي لا تقضي وقتك عاطلاً طُلب إليك أن تعد المائدة.

الإنسان لا يملك لنفسه إلا الفقر ولمـا كـان الفـقر صـفة عـدمية، فالأرجح أن نقول بعبارة أكثر وضوحاً انه لا يملك لنفسه أي شيء.

نقلنا في الموضوعات السابقة عن العارف الكبير العلامة الطباطبائي (ره) تأكيده على أنه لا يكفي في معرفة النفس أن تتنبه بأنك ذو نفس تتحكم بشؤون بدنك بل أن تعلم بأن نفسك وهي حـقيقتك ليست إلا ارتباطك الكامل مع موجودك وربك وخالقك. إذ كما قال الشيخ الأكبر ابن عربي:

«لا تجعل طبيعتك حاكمة على حياتك الالهية».

وحياتك الالهية هي بالتحديد ارتباطك مع الله. وقد حدثتك فيما يخص الآية:-

﴿نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾.[١]

بأن نفسك هي ارتباط وجودك بكله مع الله. وفهم الآية:-

﴿يا ايها الناس انتم الفقراء إلى الله والله هو الغني﴾.[٢]

يكشف لك عن سر يجعلك تفنى، فلا تعود ترى نفسك. فمن ترى؟ ترى الله.. أجدك بدأت تستوعب بالتدريج سر الفناء العرفاني.

* * *

---

١ - سورة الحشر، الآية ١٩.

٢ - سورة فاطر، الآية ١٥.

واعجباه من متسول ظفر بكل هذه النعم:

مع ما مر بنا، أدركت أنك تنعم بكل شيء وأنت في منتهى الفقر. أي أن كل ما تملكه هو من عند الذات الإلهية، وفقرك هو من جانبك أنت. ففي الحقيقة كل هذه العظمة تعود إليه. وفي العالم الخارجي كل شيء ملك لك ومبذول من أجلك. نعم، كل ما تملك وفَّره لك غيرك، فحتى أجهزة جسمك وضعها تحت تصرفك غيرك دون مقابل. فمع ميلادك وفّر لك غذاءك، أعد لك في صدر أمك مائدة من حليبها، وهو الغذاء الأمثل لك في أوان طفولتك. الثديان كانا دوماً حتى آنذاك بنفس هذا التشريح في صدر أمك ولكنهما لم يفرزا إلا في اللحظة التي تبلورت فيها حاجتك إلى الغذاء. والملفت هو أنك وهبت عندها هذه النعمة رغم أنك لم تكن بذي شعور ولا معرفة بعبادة الله ولا نطق يُعينك على الدعاء والتضرع.. هنا يتجلى اسم «الرزاق» للحق تعالى:-

﴿ما قدروا الله حق قدره﴾.

ولعظمة الألطاف الإلهية لا أقوى على التغاضي عن ذكرها مهما اعتزمت الاكتفاء عند هذا الحد من الموضوع:-

﴿وإن لكم في الانعام لعبرة، نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودمٍ لبناً

خالصاً سائغاً للشاربين﴾.[١]

الآية ترتبط بحليب الأم أيضاً، وإن كانت تشير إلى حليب الماشية. اتساءل: وهل يمكن لمن أولى تنمية جسمك هذا القدر من الاهتمام أن يهمل تربية نفسك؟ بينما جسمك هيكل لك والأصل هو أنت. ولكن جسمك واحتياجاته جعلتك تغفل للأسف عن نفسك وروحك. تعنى بمعرفة كل شيء إلا معرفة نفسك. ولكن، أعلم، لولاها لكانت معرفتك بأي شيء سواها تقترن بالجهل، وبها نتسم بالعلم والوعي. هذا ما نفهمه من حديث مولانا الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام:-

«من جهل نفسه كان بغيره أجهل ومن عرف نفسه فهو لغيره أعرف».

أمعن في التفكير وأنت تقرأ معي هذا الكلام من كتاب «فيه وما فيه» عن الشاعر الإيراني «مولوي»:

«تتشبث بذريعة أنني أصرف وقتي في أعمال مرموقة، في تحصيل الفقه والحكمة والمنطق والنجوم والطب وغيرها. ولكنها كلها لك أنت، إن وجد الفقه فإنه لك، من أجل أن لا تُسرَق لقمة خبزك ولا يُخلع عنك رداؤك، ولكي لا تُقتل ولا تُسلب عافيتك. إن وجد علم النجوم، فلتتعرف على أوضاع الأجرام وتأثيرها في الأرض...

كل هذه الأمور خلقت من أجلك. فلو تأملت تتنبه بأنك الأصل فيها وكلها فروع لك. ولما كانت فروعك بمثل هذه التفصيلات

---

١ - سورة النحل، الآية ٦٦.

والعجائب ولها عوالم مثيرة لا عد لها، تعمق (إذاً) في وضـعك، فأنت الأصل في كل هذا؟!»

كل هذه العظمة تشاهدها في العالم الخارجي، ولو تتأمل في نفسك بجد، وتتعرف على حقيقتك، تجد العالم بأسره فـي نـفسك وأنـه لك ومسخر من أجلك.

لو كنت تواقاً للمعرفة الإلهية، اسلك لتحصيله الطريق الذي يأمرك به مولانا الإمام علي عليه السلام:-

«إن بعض أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم سألته متى يعرف الإنسان ربه، فقال: إذا عرف نفسه».

معرفة الله شهودياً أرجح من معرفة النفس

أعرف ربك قبل أن تعرف نفسك:

فكر لو كنت أشعة الشمس هل كنت تعرف الشمس أولاً أم نفسك؟

ذكرت لك هذا المثال لأبين أن معلول العلة التامة إنما هو مـرتبة أدنى من العلة، وكل ما لديه مأخوذ من العلة، فـهو دون العـلة عـدم محض. فلو كان لمعلول ما مثل الانسان شعور فكل ما يعرفه إنما هو من فيض العلة. ولو أدركه عدمه فذلك أيضاً يكون من فـيض العـلة. وهذا هو المقصود من الحديث :-

«بك عرفتك وانت دللتني عليك ودعوتني إليك ولولا أنت لم أدر ما أنت».

فهذه المعرفة أولى بالمعلول من معرفة النفس. والقـول بـانه ليس هنالك معرفة أولى بالشخص من معرفة النفس رأي خاطيء لا سداد فيه دون أدنى شك.

والأرجح أن يكون ما عناه رسول الله ﷺ في حديثه: «من عرف نفسه فقد عرف ربه»، هو أن من يعرف نفسه فإنه يكون قد عرف ربه مسبقاً بلا ريب.

وفي حديث آخر نقرأ أيضاً:-

«أعرفكم بربكم أعرفكم بأنفسكم».

فالطفل يعرف أمه قبل الثدي والحليب، واستئناسه بها يكون في الواقع أقوى من استئناسه بهما وإن كان الحليب، في ظاهر الأمر، يجري في أحشائه والثدي أقرب ما يكون إليه من أمه.

باطلاعك على هذا المثال تكون قد أزحت الأسباب جانباً وأبصرت مُسبب الأسباب.. ووجودياً تعرفه أولاً ثم تعرف نفسك.

والآن ألق نظرة إلى نفسك تراه من خلالها. أنظر إلى عالمك الخارجي تجد كل ما فيه معلولاً لعلتك نفسها، فتشعر بانسجامك مع عالم الوجود برمته. تصبح على معرفة حتى بالثعابين والحشرات، وبالنباتات والأشجار. في هذه المسيرة، رواحاً تمر بالأشواك والأزهار كريح الصبا ولكنك إياباً تعانق الأشواك والأزهار لأنك، عندئذ، ما ترى منها إلا أنها تجليات لعلة هي معلولها.

يروى أن رسول الله ﷺ سئل كيف عرف نفسه فأجاب بانه عرفها بمعرفته لله.

اذاً، كل معرفة تتأتى منه.. فحتى معرفة النفس، وهي معرفة شهودية، هي الأخرى به ومنه. إنك تفكر بالله، تتحدث به، وتكتب عن أفكارك

به أيضاً. تأمل في الآية:-

﴿لقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾.[١]

إذاً، الإنسان يعرف نفسه بالله ويتعرف على حقائق العالم بالله، وكيف له أن يحقق هذه الأمور قبل أن يعرف ربه؟! فلو لم يعرفه يكون لغفلة منه وإلا فإنه يتصل بهذه المعرفة بقليل تفكير منه. أعد التفكير فيما مر بنا:-

«وبك عرفتك وأنت دللتني عليك ودعوتني إليك ولولا أنت لم أدر ما أنت».

فالمعروف يُعرف بالأعرف، الآخرون أكثر معرفة بالمُعرِف قياساً إلى المُعرَف. وهل هنالك موجود أعرف من الله يمكنه أن يعرفك على الله؟!

والغائب يعرف بالحاضر الشاهد. من هو الشاهد الأكثر شهوداً من الله؟! تعمق في الحديث التالي:-

«من زعم أنه يعرف الله بحجاب أو بصورة أو تمثال فهو مشرك لأن الحجاب والمثال والصورة غيره وانما هو واحد موحد، فكيف يوحد من زعم أنه عرفه بغيره. إنما عرف الله من عرفه بالله. فمن لم يعرفه به فليس يعرفه، إنما يعرف غيره.. لا يدرك مخلوق شيئاً إلا بالله

---

١ - سورة (ق)، الآية ١٦.

ولا تدركه معرفة الله إلا بالله..».[1]

نفهم من هذا الحديث أن إدراك المخلوق عامة لا يتم إلا بالله. فإن تعمقت أكثر في حقيقة معية الله معك، تدرك أن إدراكك متوحد معك لا انفصال بينكما وهكذا أيضاً خلق الادراك.

يقول منصور بن حازم أنه قال للإمام الصادق عليه السلام: «اني ناظرت قوماً فقلت لهم ان الله جل جلاله أجل وأعز وأكرم من أن يعرف بخلقه بل العباد يعرفون بالله. فقال: رحمك الله».

---

١ – الشيخ الصدوق، كتاب التوحيد، ص١٤٣.

«الإنسان،الكون الجامع»

الإنسان كون جامع، ففيه يكمن الاستعداد لتـقبل ذخـائر مـعارف العالم بأسره. إنه يستوعب عالم الوجود كله. ففي كلام له يقول الإمام علي عليه السلام لكميل بن زياد:

«يا كميل إن هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها».

ولكل شيء أن يعبأ في هـذا الوعـاء، فـهذا الوعـاء مـقر النـفس الانسانية، والنفس باقية لا تفنى. انك بتعلمك تحمل معك شيئاً سوف تستوعبه دوماً بالنظر لتوحد الوعاء والمستوعب. فالإنسان يتوحد مع علمه.

من هنا يتوجب التأمل فيما تعبئه في وعاء نفسك. فللهزل واللـغو والهجاء أيضاً أن تكون من مستوعبات النفس الانسانية ولكـن لمـن يعبأ في هذا الوعاء معارف أسماء الله وأفعاله وذاته مصيراً غير مصير سواه. فليس سيان العارف بالله وعالم الأحياء أو عـالم النـباتات أو عالم الكونيات (الكوزمولوجي) أو العالم بالبكتريا. فالأول يكون قد

عرف الخالق والآخرون مخلوقاته ومع أنهم يقفون في مراتب أصحاب العلوم يوم القيامة إلا أنهم غير ضليعين في مجالات المعرفة الأخرى.

فمعرفة هذه النفس، التي لها أن تستوعب كل هذه الذخائر المعرفية، هي الطريق إلى معرفة ربها فهي من تجليات ربها في عالم الوجود.

يكتب صدر المتألهين في كتابه العظيم «الأسفار»:-

«واعتبر من أحوال نفسك الناطقة المفطورة على صورة الرحمن وهي حجة الله على الخلق».

وهو في ذلك يستند إلى حديث نقله الكليني (ره) في «الكافي» (باب الروح) والشيخ الصدوق (ره) في كتابه «التوحيد» جاء فيه:-

«سمع النبي رجلاً يقول لرجل قبح الله وجهك ووجه من يشبهك. فقال: لا تقل هذا فإن الله خلق آدم على صورته».

والمقصود من ذلك بالطبع ليس تشبيه الجسم والصورة مع الله بل النفس الانسانية. فلكل تجل تشابه عام مع المتجلي فأنت ترى مثلاً أن للنفس اطلاع وعلم بجميع أجهزة الجسم وحتى خلاياها. فالبعوضة عندما تلدغ الانسان بأبرتها لا يتجاوز أذاها الخلية الجلدية الواحدة ولكن النفس تحيط علماً بذلك، فترسل ايعازاً في هذا الخصوص إلى الدماغ، والدماغ بدوره إلى الأعصاب والأعصاب إلى اليد، التي تسارع لإبعاد البعوضة. ربما لا يستغرق كل هذه العمليات ثانية واحدة.

وسّع دائرة رؤيتك، وقس على ذلك العلم الشهودي للحق تعالى على جميع مخلوقاته. فالجسم تابع للنفس والعالم مخلوق الله وتابع

له.

تأمل كيف تتكون الصور الذهنية عاجلاً في دماغك؟! استحضر صورة أبيك في ذهنك، صورة جبل ما، شجرة، الأزهار وبألوانها المختلفة. إنها تحضر بمجرد عقدك النية لاستحضارها. إذاً، الصور الذهنية تتكون لديك دون أدنى مشقة أو عناء.

فأنت وعلمك متوحدان أي أن نفسك هي علمك.

إنك ما أن تعقد النية ينساق نتاج علمك على لسانك دون عناء. فبيانك في الحقيقة هو تجل لنفسك. وتسجيلك هذا النتاج على الورق هو الآخر معلولك ومعلول نفسك. أنظر إلى هذه القضية أيضاً كنموذج من نماذج تجل علم الحق وهدايته وربوبيته. فالقرآن كما ذكرنا كلام الحق، والعالم دفتر كتاباته. كنت أريد من كلامي هذا أن أسلمك رأس خيط يهديك للوصول من معرفة النفس الى معرفة الرب.

ويرى الإمام محمد الغزالي ان الانسان لو لم يكن كبرى آيات الحق تعالى لما كان بوسعه ان يرتقين من معرفة النفس إلى معرفة الحق.

ولما كنت قرأت عليك ما مر بنا من نصوص قرآنية وأحاديث روائية، استمع هذه الدفعة إلى كلام عن الشاعر جلال الدين في معرفة النفس:

«انفق ما في جعبتك لتقصي حالك. ماذا تنفق في تدارس العالم؟ معرفة الله عميقة، ولكن تأمل أولاً فالعميق أنت...».

«... ولما تعرفت على ذلك، أطرب وانتعش، فإن لقيت شخصاً آخر

عانقه وإن لم تلق شخصاً آخر عانق نفسك..».

«خُلق الإنسان لهدف، ليعرف نفسه: من أين أتى؟ وإلى أين مرده؟ أعطي زخماً ظاهرياً وباطنياً ليكون عدته في سعيه هذا. إنه استغله في أمر آخر. لم يدخر لنفسه ضماناً لتزدهر حياته. يقضي أيامه بتحصيل العلوم وهو أفضل انشغالات الدنيا متنائياً عن هذا الهدف..».

«لا خير لك في وقوفك على العرش ولا خير لك إن ارتقيت سبع طبقات فوق العرش فالغاية المنشودة هي انفتاح أبواب القلب..».

«الجميع فداء للإنسان والإنسان فداء لنفسه..».

«النفس الإنسانية وعاء العالم الخارجي برمته»

الآن وقد عرفت أن الإدراك والمعرفة من الحق، لاحظ أن معرفة الإنسان بالعالم الخارجي تنطلق من باطنه نحو الخارج. فصورة الشجرة تعكسها العينان في الدماغ حيث تصل إلى الدماغ بعد اجتياز مراحل مختلفة في عدسة العين، فتحدد النفس ما هي هذه الصورة.

أنت تسمع عبارة ما. وحقيقة السماع هو اقتحام الأمواج الصوتية للأذن وفهمك لمعنى العبارة. وهكذا بالنسبة لحاستي اللمس والذوق.

من هنا، فإننا لاكتساب المعرفة نستدخل الخارج إلى باطننا. وهنالك يتم حدثا المعرفة والادراك.

الآن ولتتعرف على نفسك، تصورها مرآة تعكس صورة تكونت فيها من العالم الخارجي، وقد انشغلت بالنظر إلى نفسك في نفسك وسوف تنجح بعون الحق من معرفة العالم بها.

فالنفس إن كانت مرتعاً للصفاء والمعرفة، لا ترى بها إلا صفات الحق وأسماءه، ولا تبصر فيها سواه حيث تنعكس فيها صور تجليات

اسمائه تدركها بفيض منه، فهو الشاهد والمشهود. عندئذ تغيب عنك نفسك فلا تعود تراها. لقد خلق الإنسان أساساً للنظر في مشاهد العالم والتأمل فيها. ولكن، وا أسفاه، إنه لم يعرف لا نفسه ولا مشاهد التجليات ولا صاحب المشاهد.

الآن عرفت مدى عظمة نفسك حتى صارت تُسخر العالم بأسره. هذا ما تؤكده الآية:-

﴿وسخَّر لكم ما في السماوات وما في الأرض، جميعاً منه﴾.[1]

وأن كل شيء يتجلى في هذه المرآة. فأنت اللوحة، وهو مصورك بريشة إرادته. ما أسعد الذين يمحون في لوحة نفوسهم كل شيء سوى جماله وجلاله.

يقول الإمام الصادق عليه السلام:-

«القلب حرم الله فلا يسكن في حرم الله إلا الله».

لقد عرفت أنه هو مسيّر نفسك وقلبك. فإن رغبت في أن يستقر قلبك في يده وتلتحق بركبه فقل:-

«اللهم بنورك اهتديت، وبفضلك استغنيت، وبنعمتك أصبحت وأمسيت».[2]

---

١ - سورة الجاثية، الآية ١٣.

٢ - من دعاء العشرات.

ارتباط معرفة النفس بمعرفة الله

الاحتمال قوي أن يكون مفهوم الحديث النبوي الشريف: «من عرف نفسه فقد عرف ربه»، هو أن النفس الإنسانية تجل من تجلياته، ولكل متجل تشابه وانسجام مع مصدر تجليه. ونفسك تحيط علماً (علماً شهودياً) بخصائص ذاتها.

«بل الانسان على نفسه بصيرة».[1]

وبنظرة إلى نفسه وخصائصها يتيسر له معرفة الحق تعالى. يكتب عز الدين المقدسي في كتابه «غوالي اللئالىء» فيما يخص هذا الكلام:-

«الروح لطيفة لا هوتية في صفة ناسوتية، دالة من عشرة أوجه على وحدانية ربانية:

١ - لما حركت الهيكل ودبرته علمنا أنه لا بد للعالم من محرك ومدبر

---

١ - سورة القيامة، الآية ١٤.

٢ - دلت وحدتها على وحدته
٣ - دل تحريكها للجسد على قدرته
٤ - دل اطلاعها على ما في الجسد على علمه
٥ - دل استواؤها إلى الأعضاء على استوائه إلى خلقه
٦ - دل تقدمها عليه وبقاؤها بعده على أزله وأبده
٧ - دل عدم العلم بكيفيتها على عدم الإحاطة به
٨ - دل عدم العلم بمحلها من الجسد على عدم أينيته
٩ - دل عدم مسها على امتناع مسه
١٠ - دل عدم إبصارها على استحالة رؤيته».[١]

أنه كلام في منتهى الحكمة. من هنا يلزم معرفته واستيعابه. دعني لا أطيل اللبث ها هنا. المهم انه عندما تتأمل الجسم يتضح أن سلامة الجسم تتوقف على الحركة. فحتى عندما ترقد في فراشك، القلب في حراك ونشاط.. الدم يمضي منساباً في مئات الكيلومترات من شرايين الجسم وأوردته وشعيراته الدموية.. الرئتان في حركة مستدامة.. الحجاب الحاجز يتحرك.. الطعام يسترسل عملياته في المعدة والأمعاء، والكبد والكليتان تواصل عملها ونشاطها. ولو كان هنالك أجهزة دقيقة لأثبتت أن الشعر والأظافر، كلها في حراك. حسناً، هذه الحركة تتطلب طاقة. فلا حراك دون طاقة. ولا سكون إلا في

---

١ - بحار الأنوار، المجلد ٦١، ص٩٩ و ١٠٠.

جثث الأموات.. سوف تقول ان الراعي والمحرك هي الروح.

والآن، أنظر وتمعن لترى أن جميع أجزاء العالم في حراك..

قال تعالى:-

﴿كل يجري لاجل مسمى﴾.[١]

و﴿وترى الجبال تحسبها جامدة، وهي تمرّ مر السحاب﴾.[٢]

أما حركة النباتات والحيوانات فإنها واضحة للعيان. ولكن، اعلم ان جزيئات الاجسام المادية والفاقدة للروح هي الأخرى في حراك متواصل. وبواطن الذرات أيضاً كلها تشهد الحركة. ها هي الأرض تواصل دورتين: وضعية وانتقالية. وللمنظومة الشمسية (١٦) حركة..المجرات كلها، ومنظومتنا جزء صغير منها، في حركة لا هدوء فيها.

﴿والسماء بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون﴾.[٣]

يا ترى، لمن تنسب كل هذه الحركة سوى لله، وهو روح عالم الخلق؟! افلا تتذكر أنه (لا حول ولا قوة إلا بالله). فمن يمسك هذه المجرات وينظّم شؤونها؟

يقول عز وجل:-

﴿إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا، ولئن زالتا ان امسكهما من

---

١ - سورة الرعد، الآية ٢.

٢ - سورة النمل، الآية ٨٨.

٣ - سورة الذاريات، الآية ٤٧.

أحد من بعده﴾.[١]

قل: روحي فداء لروح العالم فهي منه ولا تملك من عندها أي شيء.

﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخَّر الشمس والقمر، ليقولن الله، فانى يؤفكون﴾.[٢]

ليس للجاحدين أي رد وجواب. انهم لا يهتدون لمسبب للخلق فريد في العلم والمعرفة إلا الله. هاهنا، لو اهتديت إليه سرعان ما تهتدي لمعرفة نفسك. والعكس صحيح.. فأنت لو عرفت نفسك تسهل عليك معرفته.

فكل ما لا يعتبر جزءاً من سطح الأرض، تكون له حركة من أنماط أربعة:

١ – حركة على سطح الأرض أو في أعماقها.

٢ – حركة تخالف قوة جاذبية الأرض فيرتقي المتحرك نحو خارج الأرض.

٣ – حركة تنطلق من أعماق الأرض نحو سطحها مثل براعم النباتات أو حجم البراكين.

٤ – حركة هابطة من السماء نحو الأرض مثل حركة قطرات المطر أو الشهب السماوية.

---

١ – سورة فاطر، الآية ٤١.

٢ – سورة العنكبوت، الآية ٦١.

كل هذه الحركات إنما تتم بعلم منه. وكل ما يكون بـعلمه يكـون بقدرته أيضاً.

أمعن التفكير في الآية:-

﴿يعلم ما يلج في الأرض، وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، وهو معكم أين ما كنتم، والله بما تعملون بصير﴾(١)

والآن، انظر إلى نفسك: لو تنطلق من البئر نـحو خـارجـها، فأنت أنت.. ولو تعرج من الأرض إلى السماء، فأنت أنت.. ولو تـهبط مـن السماء باتجاه الأرض، فأنت أنت.. ولو تلقي بنفسك في البئر كذلك، أنت أنت.. ذاتك ترافقك في جميع هذه الحركات بمختلف أنـماطها.. وهكذا هي أيضاً معية الحق تعالى مع جميع المخلوقات.

* * *

والوجه الثاني، (دلت وحدتها على وحدته)، ان وحدة الروح فـي جميع أرجاء الجسم تدل على وحدة خالق عالم الوجود. فأما وحدة الروح، فان الانسان يدركها بـوضوح طـولياً وعـرضياً. وأقـصد مـن (طولياً) أي «على مر الزمان». فأنت في مرحلة ما كنت طـفلاً وفـي أخرى شاباً.. وقد تكون بلغت مرحلة الكهولة أو الشيخوخة. ولكن.. أنت أنت مع أن جسمك في تغيير متواصل.. الخـلايا تـموت وتـحلّ محلها أخرى.. وما هو واضح لك في أمر الأظافر، انها تنمو كل اسبوع،

---

١ - سورة الحديد، الآية ٤.

وعليك أن تقرضها.. فظفرك في هذه السنة ليس نفس ظفرك في العام الفائت.. والنساء اللواتي يصبغن شعرهن يرين أصول شعرهن (البيضاء) تنبت من جديد أما القسم الملون فإن مصيره القص، بالتدريج.. انها قضية يدركها الجميع، لها شأنها في جميع أنحاء بدنك. إذاً، جسمك هذا، في الحقيقة، ليس جسمك فيما كنت قبل الآن. ولكنك.. أنت أنت. تستعيد ذكريات ماضيك فتقول: كنت منشغلاً باللعب عندما جُرح رأسي.. كان فلان معلمي عندما كنت تلميذاً في الصف الأول الابتدائي.. كنت أشعر بالارتياح والرضا عندما أنهيت دراستي في مرحلة الاعدادية.. فواصلها الزمنية ربما تبلغ عشرات السنين. هذا الجسم ليس بذاك، ولكنني أنا نفس ذلك.

واما عرضياً، فأعني به «في فسحة الجسم». فرغم اختلاف أعضائه، تقول: يدي، ساقي، رأسي، عيني. فاناك متوحدة رغم هذه الكثرة. انها تتمثل بالروح.. وأنت بتفهمك لهذه الوحدة تدرك حقيقة وحدة الباري تعالى في العالم. إذاً:

﴿أفي الله شك فاطر السماوات والأرض﴾.[١]

* * *

والوجه الثالث يحدده المقدسي (ره) بالقول: «دل تحريكها للجسد

---

١ – سورة ابراهيم، الآية ١٠.

على قدرته». ولايضاح هذا الموضوع وهو ليس على اختلاف يـذكر مع الوجه الأول، أعرض الكلام من واجهة أخرى.

يتكون جسم الإنسـان بكـله مـن الخـلايا. والخـلايا هـذه، كـلها مخلوقات حية ولكنْ كلٌ من نـوع خـاص: خـلايا عـظمية، خـلايا عضلية، خلايا القلب، خلايا الرئتين، خلايا الكبد، خلايا دموية، خلايا الأظافر، خلايا الشعر. ألا ترى انها، عضوياً، ليست على أي ارتباط مع بعض.. إنها لا تلتقيأبداً.. كأن الجسم قارة مترامية الأطراف، لها بلدان شتى، لا خبر لأي منها عن الآخر. قلت قارة متراميـة الأطـراف لأن للكرة الأرضية حوالى خمسة مليارات نسمة من السكان وعدد خلايا جسم يزن ٦٠ كيلوغراماً، إنما يُكتب بوضع (١٣) صفراً عـلى يـمين العدد (١)، ممايصعب قراءته. ولكن علىأية حال عدد سكان جسمك فيما إذا كان يوزن ٦٠ كـيلوغراماً، أو بـالاحرى قـل عـدد خـدمك وحشمك. حسناً، هنا يطرح السؤال: هذه الخلايا، ومع انها لم تلتق مع بعض قط ولكنها تتبادل اسداء الخدمة لبعض.. جميع خلايا الرئـتين والكليتين تخدم القلب، والجهاز الهضمي والكبد تخدم جميع السكان الآخرين. إذاً، تعال وصارحني وفكر مليّاً: مـن هـو قـائد كـل هـذه المنظومة؟! المدهش هو ان أكثرية النـاس لا يـعلمون أسـاساً مـاذا يحدث في جسمهم!

فلو تجيبني ان الدماغ هو القائد. اجيبك ان الدماغ، بدوره، يتكون من مجموعة من الخلايا. انك تفهم جيداً ان هنالك قائداً آخر يـؤدي هذه المهام. ألا وهي الروح. هكذا استوعب أنت ارتباط عالم الوجود

مع الله، فكل اجزائه تخدم بعضها البعض: الشمس تواصل خدمتها في مجال منح الطاقة وتفعيل التبخير.. الرياح في مجال النقل. فمثلاً تنقل الغيوم إلى وجهتها المحددة.. قوة الجاذبية تنشط في مجال اجـتذاب التربة من أجل رعايةالنباتات وضمان الارزاق، و...



والوجه الرابع هو: (دل اطلاعها على ما في الجسم، على علمه).

اين هو موقع الروح من الجسم. فلو كان لها موقع خاص فكـيف تُشرِف منه على جميع الأعضاء.. بعض أنواع البعوض يكون بدرجـة من الصغر تمكنها من التسرب من منافذ الكلل أيضاً أو أنها لا تـرى بالعين المجردة. فما هو حجم ابرة هذه البالغة الدقة؟! إنها عندما تغرس هذه الابرة الدقيقة للغاية في قدمك تعرض جزءاً في منتهى الصغر من إحدى خلاياك الجلدية، للأذى. خبر الحادث يصل الى دماغك عـن طريق الأعصاب، والدماغ يتخذ قراره للدفاع عنك فيصدِّر أمـره إلى الخلايا العضلية والعظمية. فتتأهب ملايين الخلايا للتحرك.. ترتفع اليد وتهبط في نفس المكان الذي استقرت فـيه البـعوضة.. هكـذا تُـطرد البعوضة. هذا عرض واحد لمظاهر سلطان الروح وتحكمه بـالجسم. ربما لا تستغرق كل هذه العمليات ثانية واحدة.

تدخل ذرة من الغبار صغيرة، إلى العين.. تـندفع الخـلايا الدمـعية للتطهير بالماء كما تفعل مركبات اطفاء الحريق. فتغسل العين وتـدفع

المادة الوافدة.

أحياناً تشعر أن شعرة ما، ناعمة، قد دخلت فمك فتخرجها فوراً. فما هو مبلغ علم خلايا اللسان هذه التي تتحسس وجود شعرة ما عليه. فهل علمها من نفسها؟

تقتحم جرثومة ما الجسم. فتعبىء كريات الدم البيض جيشها ضد الجرثومة.. وبمواجهة كل نوع من أنواع الجراثيم تقوم بترشيح مادة كيميائية خاصة بنسف ذلك النوع.. كأنها تحمل معها قنبلة كيميائية. فمن أية كلية عسكرية أخذت هذه الدروس العسكرية؟ وفي أي مختبر صنعت موادها الكيميائية؟ ومن قدّم لها هذه الدروس؟ هل الروح تسيّر أمورها أم أن علمها من عند نفسها؟ ماذا تفعل، يا ترى، لولا الروح؟

حسناً، قس على ذلك صنع الله في خلقه.. فلو كنت تشعر بمعية الروح معك بوضوح، لماذا لا تستوعب وجود الله معك؟ وهل الروح مستقلة بنفسها؟ وهل للروح وجود قديم؟ هل خلقت نفسها بنفسها؟!

* * *

شامة روحك بدأت تشم رائحة المعرفة، فليحفظ الله لك عافية هذه الشامة.

لا أخجل أن أكتب بعض الألحان مطربة، منعشة، تبث الحركة.. كأنها أنسام عيد الربيع. فأي نبات لا يهتز بطلوع نهاره إنما هو حطب،

لا غير. إنها انسام تداعب الروح. فهل لها أن تداعب غـير ذي روح؟ وهل للفظة «الفاتن» مفهوم عند من لا قلب له؟!

* * *

والوجه الخامس: (دل استواؤها إلى الأعضاء عـلى اسـتوائـه إلى خلقه).. وهذه الإحاطة هي إحاطة بالعلم واحاطة بالقدرة، في الوقت نفسه.. فمثلاً، عند تعرضك للضوء القوي تقترب أجفانك من بعض دون ارادة منك تفادياً لاتلاف عدستي عينيك.. وعند مواجهة الغبار والتربة، كذلك، تتقارب الرموش للحيلولة دون تسرب القذى إلى العينين.. وكلتا العمليتين غير اراديتين..

المعدة تلفظ اللحم المتفسخ والمسموم فـيصاب الشـخص بـحالة الغثيان دون أن يكون له دخل في ذلك..

وعندما يكون الجسم بحاجة إلى الماء، تشعر أنت بالعطش. فأنت تمدّ الجسم بالماء عندما يعلن هكـذا عـن حـاجته إلى هـذه المـادة الحيوية. تقدم الطعام للمعدة عندما يصدر لك شعورك بالجوع أوامره.. وتبحث عن العلاج كلما يرغمك الألم على ذلك.. نشاطات جسـمك هذه، غير ارادية.. أنها ايماءات لوجود عالِم وراء الكواليس.. إنه عالم ومُدبّر ومدير. وبالطبع كلا علمه وإحاطته محدودان.. ويتحكم بالعالَم علم وإحاطة شاملة.. فالغيوم تتوقف حيث تنتشر النباتات والأشجار. الرقّي يثمر في فصل الحر لسد متطلبات عطش الناس. وهذا مؤداه أن

المسيّر للأمر هو عليم وقادر في الوقت نفسه.

* * *

والوجه السادس: (دل تقدمها عليه وبقاؤها بعده على أزله وأبده).

الاعتقاد السائد بان الروح تتسم بأقدميتها بالنسبة للجسم.. هذا ما تدل عليه الآيات المتمحورة حول أحداث عالم الخلق. والمسلمون جميعاً يذعنون لبقاء الروح بعد تفسخ الجسم وهذا ما يقرّه القرآن أيضاً.. ومع اثبات كون الروح نفخة وتجل، عندئذ يتحتم أن تكون على مثل سنخ المتجلي حيث كل يعمل على شاكلته.. من هنا، فان ذات الحق تعالى أزلية.. أنه أولٌ، لم يوجد شيء أو أحد قبله ... وهو آخر لا بَعْدَ له. إذاً، انظر إلى روح الأرواح في مرآة نفسك العاكسة لكل الكون. وتأمل صورته في حرم قلبك.

* * *

والوجه السابع: (دل عدم العلم بكيفيتها على عدم الإحاطة به). من المسلم به اننا لا نحيط علماً تاماً بأمر الروح. وكل ما نعرفه انها نفخة إلهية وتجل من تجليات خالقها.. وانها قيّومة على الجسم ومصدر الحياة، وكلها معلومات جزئية. والبعض فسّر معنى «من عرف نفسه فقد عرف الله» انك لو تقدر على معرفة الروح، يكون لك أن تكتسب المعرفة فيما يخص ربك، بمعنى أنه أمر مستحيل. والقرآن الكريم أيضاً

يذكر ايضاحه حول الروح بأسلوب عرضي ايمائي:

﴿يسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي، وما اوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾.[١]

مع أن الحق تعالى يصرح بوضوح في هذه الآية، بأن الروح ليست من عالم المادة والخلق بل من عالم الأمر (ما وراء الطبيعة)، يؤكد في نهاية الآية ان العلم الانساني لا سبيل له إلا الى قليل من المعلومات حول هذه القضايا. ولما كان الأمر على هذه الحال، يتضح مدى وحدود إلمامه بمعرفة ذات الحق. ثم إننا عندما نجد أن نبينا الكريم ﷺ، وهو العارف الأكبر حقاً، يقول: «ما عرفناك حق معرفتك»، غني عن الايضاح ما يكون عليه حالنا نحن المقتاتين على فتات مائدته.

ولكن.. لا بد لنا أن نعرف ان الكلام هنا يدور حول معرفة (ذات) الحق، وليس (الصفات والأفعال).. نقرأ في أحد الأحاديث الشريفة :

«لا يدركه بعد الهمم، ولا يناله غوص الفطن».

واستمع إلى عذب كلام عارف شيراز، حيث يقول:

«العاكفون في كعبة جلاله أذعنوا لتقصيرهم وعجزهم في العبادة، حيث (يرددون): ما عبدناك حق عبادتك، وواصفوا حلية جماله نوهوا لاندهاشهم، أن: ما عرفناك حق معرفتك».

* * *

١ - سورة الإسراء، الآية ٨٥.

والوجه الثامن: (دل عدم العلم بمحلها من الجسد على عدم أينيته)، أي تجرده وعدم تحدده بمكان خاص. فمن الواضح أن الروح لا تستقر في مكان معين من الجسم مع أنها ترافق جميع الأعضاء، بل حتى الخلايا. فللروح حياة ولما كانت للخلايا، أيضاً، حياة فحياتها حياة الروح. ولو كان بك اصرار على ان تحدد مجال الروح، لا يمكنك إلا ان تقول بانها تحيط بكل الجسم وانها قيّومة وقائمة عليه.. ونفس هذا الايضاح لك أن توضح به شأن العالم إزاء الله. فلا هو في مكان خاص ولا يحتويه شيء.. فلو نقول أنه في السماء، فمعناه أنه ليس في الأرض. وإذا قلت انه في شرق الأرض، فمعناه أنه ليس في غربها، بينما ﴿اينما تولوا وجوهكم فثم وجه الله﴾. ولو تستخدم لفظة «استيعاب» وانت تتحدث عنه تكون قد جعلته وعاء، بينما هو «المحيط» بكل شيء: «والله من ورائهم محيط».. إنها رائحة تنتشر فيكل مكان ولكنك لا تعثر على المعطرة.. إنه مع الجميع والجميع ليسوا معه.

❊ ❊ ❊

والوجه التاسع: (دل عدم مسها على امتناع مسه).. لأن ذات الحق تعالى مجردة، بل ما وراء المجردات، نفخته أيضاً مجردة. فكل (غير مجرد) يكون غير مستغن، بل بحاجة على أقل تقدير، الى الأجزاء، الى المكان.. والروح، بحسب قانون «كل يعمل على شاكلته» لها مثل صبغته، أي انها متجردة عن اللون وعن المكان، وكذلك عن الأجزاء..

ولما كانت منه، تعود اليه كما يعود الجسم بصبغته الترابية، إلى التراب.. خلقنا من التراب وسوف نعود إليه مآلاً. قال تعالى:-

﴿منها خلقناكم، وفيهانعيدكم، ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾.[١]

هذه حكاية الجسم، أما الروح فحكايتها تنطوي عليها العبارة: «إنا لله وإنا إليه راجعون».

حقاً، لنا أن نقول: مع أن الروح أمر غير محسوس حيث لا يمكن ادراك حقيقتها بأية حاسة، إلا أن جميع نشاطات الجسم تنبثق منها كما هو الله عز وجل حاكم وقادر وقيوم ومحيي ومحرك في العالم. من هنا، مثلما يمكننا التوصل إلى اليقين فيمايتعلق بوجود روح واحدة عند الشخص الواحد، بامكاننا تحقيق يقين أفضل حول وجود خالق واحد عالم وقادر. حيث ان:

﴿لَخَلق السماوات والأرض اكبر من خلق الناس، ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾.[٢]

❊ ❊ ❊

الوجه العاشر: (دل عدم إبصارها على استحالة رؤيته). وهو دليل لا يختلف عن الدليل الأسبق. ففي الدليل السابق كان الموضوع، موضوع

---

١ - سورة طه الآية ٥٥.

٢ - سورة غافر، الآية ٥٧.

اللمس وفي هذه الفقرة يدور الموضوع حـول حـاسة البـصر. إذاً لا يمكن ادراك حقيقة الله بأية واحدة من حواسنا الخـمس. فـالحواس الخمس لها أن تدرك آياته. ولم تُخلق هذه الحواس إلا لهذا الغرض.

وربما كان خلاف ذلك ما طلبه النبي موسى عليه السلام من الله حيث رُدّ خائباً بسماع الجواب: «لن تراني»، أي لن تراني بعين البصر. وإلا فقد حث عز وجل رسوله المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ليراه بعين البـصيرة، كـما فـي الآية:-

﴿ألم تر إلى ربك﴾.[1]

يروى أنه عندما سئل الامام الباقر عليه السلام: أي شيء تعبد؟ قـال اللـه تعالى، فسأله الرجل: رأيته؟ قال عليه السلام: «بل لم تـره العـيون بـمشاهدة الأبصار، ولكن رأته القلوب بحقائق الايمان. لم يـعرف بـالقياس ولا يـدرك بـالحواس ولا يُشـبَّه بـالناس، مـوصوف بـالآيات، مـعروف بالعلامات. لا يجور في حكمه، ذلك الله».

وإضافة الى هذه الأمور نضيف ملاحظة أخرى ذكرناها قبل هذا، وهي ان الانسان يستغرق في النوم، ولكن جميع أعضاء جسمه تبقى متيقظة تواصل عملها: القلب، الرئتان، الجهاز الهضمي، الكـليتان و...، كلها تعمل بشكل دؤوب. فلو يسقط غطاؤك على أنـفك وأنت نـائم تدفعه يدك فوراً. ولو تلدغك بعوضة تسارع يـدك لأداء مـهمتها. ولو يثقل جسمك على احدى يديك وأنت نائم يستدير نحو الجانب الآخر.

---

١ - سورة الفرقان، الآية ٤٥.

ولو ينزاح غطاؤك عن قسم من جسمك وأنت نائم في فصل الشتاء، تبادر يدك لسحب الغطاء على جسمك.

أحياناً تضيّق عليك الأحلام المزعجة، وأكثرها تراودك في ليال تُكثر فيها من تناول الطعام. مثلاً عندما تحضر مأدبة وتدفعك شهيتك للتناول من جميع المأكولات.. المعدة مثقلة، لا يمكنها أداء مهمتها بأسلوب جيد.. تجتمع الغازات فيها فتضغط على الحجاب الحاجز والحجاب الحاجز بدوره، على القلب فيعجز عن العمل كما يرام. تتسارع دقات القلب. وأنت تستيقظ إثر رؤية الأحلام المزعجة فتتنبه لاضطراب قلبك وتفكر في حل.. قد تجلس قليلاً وتتجشأ عدة مرات. هكذا يعود القلب إلى حالته الطبيعية.

يتضح من جميع هذه الأمثلة، كأنه حتى عندما أخلد إلى النوم، هنالك يد أخرى تسيّر أموري وتحافظ عليّ. وبهذا يتضح أن الروح هي مظهر من مظاهر ﴿لا تأخذه سنة ولا نوم﴾.[1]

---

١ - سورة البقرة، الآية ٢٥٤.

في معنى الظهور والبطون

اعلم ايها العزيز أن ما تدركه بحواسك الخمس، كله من عالم الظهور. وقد يكون للحيوانات نصيب أوفر من هذا العالم، بما تملكه من حواس أقوى مما هي عليه لدى الإنسان. واستجلاء عالم الظاهر لا يمثل أية مزية وابداع بالنسبة للإنسان، إذاً

چشم دل باز كن كه جان بينى

آنچه ناديد نيست آن بينى[1]

بل حدد الله المزية التي تمنح الانسان الأفضلية في قوله تعالى:- ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾.

لقد استجلى العلماء عالم الطبيعة وخلصوا إلى أنه ذو باطن. هكذا كشف العلم الحديث عن أسرار بواطن خلايا الكائنات الحية والذرات

---

١ - بيت الشعر للشاعر الإيراني «هاتف اصفهاني» ومعناه:

- «افتح عين القلب عسى ان ترى الحبيب، عسى ان ترى الغير مرئي».

في الأجرام السماوية. ونحن لسنا بصدد الحديث حول هذه الأمـور. تأمل نفسك، هذا النشاط الذي تتبناه هذه الأعضاء وأغلبيتها لا تتجز بإرادتك، كيف تسير؟ ما هي الحياة أساساً؟ ومن أيـن تـنشأ؟ وهـذه الخلايا التي لم تتعرف على بعض، كيف لها أن تخدم بعض؟ من هـو القائد في قارة بدني العظيمة هذه؟ كيف يكون بمقدور خلايا قلبي أن تواصل نشاطها على مر عشرات السنين تخدم به جميع أعضاء الجسم دون أية استراحة أو استرخاء؟

على أية حال، آن الأوان لتزيح الحجب عن عالمك الباطني الواحد بعد الآخر.

وللعرفاء فيما يخص هذه البواطن كلام حيث يقولون: إنك تستبطن عالم الطبع والنفس والروح والسرّ والخفي والأخـفى. وذلك الأخـفى المستتر عن الجميع هو ذاته جل جلاله وهـو مـنشأ تـجليات عـالم الوجود بأسره. ووصف بالأخفى حيث انه ممتنع عن معرفة الأغيار فلا سبيل للعقول للإهتداء إليه: ﴿يحذركم الله نفسه﴾،[1] حتى قـال سـيد الكائنات: «ما عرفناك حق معرفتك. وهذا ما نستوحيه من الحـديث: «تكلموا في خلق الله ولا تتكلموا في الله»، ولتعلمن أيضاً أن للقرآن بواطن، تذكر بعض الأحاديث بأنها سـبعة وبـعضها بأنـها سـبعون لا يهتدي إليها إلا أصحاب الذوات الطاهرة الزكية:-

---

١ - سورة آل عمران، الآية ٢٨.

﴿إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسّه إلا المطهرون﴾.[١]

فليس لعامة الناس سبيل إلى النظر إلا إلى الظواهر سواء في الطبيعة أو في الأنفس أو في القرآن:-

﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾.[٢]

والسؤال هو: هل عالم الباطن هو موجد الظاهر أو العكس صحيح؟

يرى الموحدون أنه ليس هنالك من موجد ورب لعالم الظاهر في شتى الأوضاع والأحوال سوى العالم الباطن. وقد ثبت في علم الفيزياء أيضاً أن موجد المادة هو في الحقيقة الطاقة والقوة. إننا في هذه المرحلة نقترب إلى التوحيد الواقعي، توحيد لا يرى فيه الانسان إلا الله عندما يدرك الإنسان أن باطن كل عالم الكثرة موجده وربه هو ذات الحق تعالى الجامع فإنها جميعاً تجليات تجتمع في واحديته الصرفة:-

﴿أفي الله شك فاطر السماوات والأرض﴾.[٣]

يخيل إلى بعض الشكليين بان العرفاء يحسبون كل باب وجدار رباً والعياذ بالله. وكيف حتى للحمقى أن يحسبوا هذا الممكن، الذي لا يملك في وجوده إلا الفقر وهو المحدود والفقير المحض، رباً؟ بل أنهم حتى كفَّروا عظام شخصيات مثل الشيخ محيي الدين ابن عربي وصدر

---

١ - سورة الواقعة، الآيات ٧٧ ـ ٧٩.

٢ - سورة الروم، الآية ٧.

٣- سورة ابراهيم، الآية ١٠.

المتألهين والشبستري والفيض الكاشاني والملا هادي السبزواري (نوّر الله قبورهم) وهم يجهلون أن هؤلاء ينظرون إلى بواطن العالم وليس هذا الظاهر المقيد. أمهلني أذكر لك عبارة واحدة فقط عن الشيخ محيي الدين وهو من طاله تكفير هؤلاء أكثر من غيره.

«فهو عين كل شيء في الظهور. ما هو عين الأشياء في ذواتها، سبحانه وتعالى، بل هو هو والأشياء أشياء».(١)

ولما أدركت أن أصل الظواهر هي البواطن فانك فهمت أن الظاهر هو تجلي ومظهر الباطن. فهذا المظهر شيء والمادة والجسم شيء آخر. لقد غفلوا حتى عن أن «الظاهر» هو أحد أسمائه. فما عساها أن تكون تجليات هذا الظاهر سوى ظهوره في عالم الطبيعة؟

والباطن يغيب وراء هذا الظاهر. من هنا يعبر القرآن عن الله غالباً بالضمير «هو» وهو ضمير يستفاد منه للغائب. ويتكرر ذكر هذا الضمير في كلام الشيخ محيي الدين أيضاً.. ومن الأذكار الواردة في تعقيبات صلاة الصبح:-

«لا إله إلا الله الملك الحق المبين».

---

١ - أنظر الفتوحات المكية.

«الطريق إلى معرفة النفس»

كان جميع الفلاسفة قبل سقراط اباعديين أي أنهم يحددون موضوع فلسفتهم بالعالم الخارجي. يحكى أن سقراط مر يوماً بمعبد «دولف» وكان قد كتب هنالك: «إعرف نفسك».

نفذت هذه العبارة في وجود سقراط حتى أعماق نفسه فراح يفكر فيها أياماً وأياماً. يخيل إلي أن الله فتح أمامه بها طريقاً إلى آفاق باطنه فحدد موضوع فلسفته بمعرفة النفس. وقد قيل عنه أنه هبط بالفلسفة من السماء إلى الأرض فلنستمع الى كلام منه:

«لا تكابد العناء عبثاً في معرفة الموجودات الجامدة الفاقدة للروح بل اعرف نفسك، فمعرفة النفس أسمى من معرفة أسرار الطبيعة».

أردت من بدئي الموضوع بكلام سقراط أن أوضح لك سياق الموضوع تاريخياً. وإلا فإن الإسلام أكثر وأمعن في التأكيد على معرفة النفس. قال مولى العارفين الإمام علي بن ابي طالب عليه السلام:-

«عجبت لمن ينشد ضالته وقد أضل نفسه فلا يطلبها».

فكأس التجليات الخارجية فخاري، وكأس نفسك مرآتي يـعكس صورة العالم. فكم لك أن تتجاهل ضرورة تقصي هذه الضالة؟

ينساق هذا الكلام كله في سياق ايضاح عبارة من آية افتتحنا بها كتابنا هذا:-

﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾.[١]

لك في كل ما مر بنا من آياته التي استوعبتها بنفسك كفاية في هذه البشرى الالهية. فاركن إلى قلبك، فقد حل موعد اللقاء. أولاً كن أنيساً لقلبك، أميناً على أسراره. وأعلم أن

هر كه شد محرم دل در حرم يـار بـماند
وانكه اينكار ندانست در آن كار بماند[٢]

❊ ❊ ❊

ما بالنا فلو لم يكن لنا في أهمية معرفة النفس إشارة سوى الآية التالية لكان لزاماً علينا أن نترك جميع أعمالنا جانباً بأي نـحو كـان وننكب على معرفة النفس:-

---

١ - سورة فصلت، الآية ٥٣.

٢ - البيت للشاعر الإيراني حافظ الشيرازي ومعناه:

- «من صار لقلبه أنيساً سكن عند حضرة المحبوب، فمن لم يتقن هذا العمل، عجز عن ذاك أيضاً».

﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾.[١]

أي أن الطريق الرئيسي إلى معرفة الله هو معرفة النـفس. كأن لك ضالة تتقصاها. فلو لم يتم إرشادك نحو السبيل إلى ضالتك سوف تهدر عمرك بتمامه باحثاً عنها محولاً نظرك من هذا الاتجاه إلى ذاك وأنت تقف إلى رأس جادتك المباشرة إليها. ولما تأتي على نـهاية حـياتك اخيراً تجد أنك عرفت كل شيء سوى نفسك وبالتالي لم تعرف ربك. صحيح أن العلم مخزون في النفس بل متوحد مـعها، أي أن النـفس وعاء للعلم ولكنها لا تمثل موضوعه. ففي تلك الدار لا وجود لا لهذه الأرض ولا هذا الكون ولا هذه النباتات.. ولكن الله باق أبـد الدهـر تجد نفسك غفلت أن تحمل معك أدنى زاد، ونيران جهنم تُضرَم مـنك ومن أمثالك، فوقودها نفوس المذنبين. قد تقول كنت جاهلاً بهذا. يرد عليك: ألم تقرأ الآية:-

﴿قو أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة﴾.[٢]

بالطبع ربما يكون المقصود من الحجارة، القاسية قلوبهم، مـمن لم تلن أفئدتهم لذكر الله. بحسب ما نستوعبه من الآية:-

﴿ثم قست قلوبكم بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة﴾.[٣]

سوف تقول هنالك: وما حيلتي والنفس قد زينت لي الدنيا هكذا،

---

١ - سورة الحشر، الآية ١٩.

٢ - سورة التحريم، الآية ٦.

٣ - سورة البقرة، الآية ٧٤.

حتى خضت غمار كل شيء إلا معرفة نفسي:-

﴿.. وكذلك سوّلت لي نفسي﴾.[١]

يأتيك الرد: وكيف غفلت عن حقيقة خديعتها وقد نوهنا في القرآن بأن :-

﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة﴾.[٢]

فقد كنا نحيط علماً بوسوسة نفسك واعين لها:-

﴿ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه﴾.[٣]

وتعود للتشبث بالذرائع قائلاً: لم أعرف بأنني سأجدن كل ما أفعل حاضراً قائماً. يقال لك:-

﴿وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله﴾.[٤]

تقول انشغلت بأهلي وأصحابي حتى غفلت عن نفسي. يقال: هديناك السبيل ثم ذكرناك.

﴿..عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾.[٥]

تقول: انشغل فكري بكل ما سواي فأهملت حساب نفسي، تارة أغرق في حساب المال وأخرى في حساب العيال وتارة في حساب

---

١ - سورة طه، الآية ٩٦.

٢ - سورة القيامة، الآية ١٤.

٣ - سورة (ق)، الآية ١٦.

٤ - سورة البقرة، الآية ١١٠.

٥ - سورة المائدة، الآية ١٠٥.

العم والخال. عمري انقضى هكذا.

يقولون: ألم تسمع منا هذا الكلام:-

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد﴾.[١]

تقول ثانية: لم أعرف أنك معي في كل ما أفعل،ترى وتعرف. يأتيك الجواب: - ألم نخبرك:-

﴿إن كل نفس لمّا عليها حافظ﴾.[٢]

حسناً،لا أرانيك الله مرهقاً. يكفيك أن تعرف أنه لعليك أن تعرف نفسك.. ولتعثر عليها لا بد أن تعرفها أولاً. ولتحيط علماً بأهمية هذه المعرفة، أمعن في البحث التالي:-

---

١ - سورة الحشر، الآية ١٨.

٢ - سورة الطارق، الآية ٤.

«أهمية معرفة النفس»

يروى أن كميل بن زياد قال للإمام علي عليه السلام بأنه يرغب في معرفة نفسه، فقال عليه السلام:

- يا كميل! وأي الأنفس تريد أن أعرّفك؟

قال كميل:

- يا مولاي! هل هي إلا نفس؟

قال: يا كميل! إنما هي أربع: النامية النباتية، والحسية الحيوانية، القدسيّة، والكليّة الإلهية. ولكل واحدة من هذه خمس قوى، وخاصيتان؛

- فالنامية النباتية لها خمس قوى: ماسكة، وجاذبة، وهاضمة، ودافعة، ومربيّة. ولها خاصيتان: الزيادة والنقصان. وانبعاثها من الكبد.

- والحسية الحيوانية لها خمس قوى: سمع، وبصر، وشمّ، وذوق، ولمس. ولها خاصيتان: الرضا والغضب. وانبعاثها من القلب.

- والناطقة القدسيّة لها خمس قوى: فكر، وذكر، وعلم، وحلم، ونباهة.

وليس لها انبعاث. وهي أشبه الأشياء بالنفوس الفلكية. ولها خاصيتان: النزاهة والحكمة.

- والكلية الالهية، لها خمس قوى: بهاء في غناء، ونعيم في شقاء، وعز في ذل، وفقر في غناء، وصبر في بلاء. ولها خاصيتان: الرضا والتسليم. وهذه التي مبدؤها من الله وإليه تعود. قال الله تعالى: ﴿ونفخت فيه من روحي﴾. وقال تعالى: ﴿يا ايتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية﴾. والعقل في وسط الكل».

أمعن في هذه العبارة من الحديث:

- (بقاء في فناء): يحتمل أن يكون المقصود منها بأن مثل هذه النفس تشق طريقها إلى بقاء الحق تعالى في هذه الدنيا الفانية فهو الباقي ومن يغرم بالباقي ويتعشقه يهبه الله البقاء.

يروى أن العبد الصالح يتسلم في الجنة خطاباً يفتحه فيفهم من نصه أنه خطاب من قبل الله رب العزة إلى عبده يخبره فيه بأنه خالد لن يموت أبداً وقد منحه هو الآخر البقاء.. فإنه يقول للشيء كن فيكون وقد منح عبده مثل هذه المرتبة أيضاً.

- (نعيم في شقاء): في عالم يكتنز فيه الأشقياء والبؤساء لأنفسهم المادة بأنواعها، يتمتع أصحاب هذه الأنفس بقوة وارادة تجعلهم يدخرون نعمة حقيقية، ربما تكون هذه القوة والارادة أعظم نعمة في أوان الفقر.

* * *

في يوم من أيام شبابي وأنا في طور السذاجة التامة كما تعرف، كنت جالساً على سفح جبل مع استاذي. كان كثير العيال وفي منتهى الفقر المادي، حزنه الباطني وأحياناً صمته وحركاته صوّرت لي أنا الجاهل أنه يصارع الفقر بفكره. لما حادثته عن تصوري، قهقه ضاحكاً فتعالى صوته ولم أكن رأيته ضاحكاً قط ثم نطق بعبارة ما زالت ترن في أفق نفسي بعد كل هذه السنين. قال:

«أنبذ هذه الأفكار. عندما يفتح الله أبواب قلبي لنفسي، تجرؤني شدة فرحي وطربي حتى على مداعبة السلطان».

هل سمعت؟ أنا وسذج من أمثالي نقيس حالنا مع حال العظام.



إنه عليه السلام أردف يقول:-

- (عز في ذل): أي أنهم وإن خيل للناس أنهم أذلاء، لكنهم يشعرون بمنتهى العز في رحاب أنفسهم حيث بشرهم الله ﴿ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين﴾.

- وأما (فقر فيغناء)، فإنه يعني: رغم أنه يتمتع بغنى المعرفة لكنه لا يرى نفسه إلا في غاية الفقر في حضرة الحق وهو ما تنطوي عليه، في الحقيقة، الآية:- ﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله﴾.

- و(صبر في بلاء)، هو تجلده إزاء فراق المحبوب في زنزانة الدنيا ومعترك ما يواجه من بلايا في هذا العالم.

سئل رسول الله ﷺ عن كيف يعرف الإنسان ربه فأجابهم بأنه يعرفه عندما يعرف نفسه.

وقد اكد ﷺ في حديث له بأن أعرف الناس بنفسه أعرفهم بربه.

ويروى انه: «كتب قيصر إلى علي عليه السلام: علمت انك من أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة وأنت موصوف بالشجاعة والعلم. وأؤثر أن تكشف لي عن مذهبكم في الروح التي ذكرها الله في كتابكم في قوله ﴿يسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي﴾. فكتب عليه السلام إليه:

أما بعد:

فالروح نكتة لطيفة، ولمعة شريفة، من صنعة باريها، وقدرة منشيها. أخرجها من خزائن ملكه، وأسكنها في ملكه، فهي عنده لك سبب، وله عندك وديعة. فإذا أخذت مالك عنده، أخذ ماله عندك. والسلام».

- قال الامام علي عليه السلام:

«اعظم الجهل جهل الإنسان أمر نفسه».(١)

- وقال عليه السلام أيضاً:

«أفضل الحكمة معرفة الإنسان نفسه ووقوفه عند قدره».(٢)

* * *

---

١ - ميزان الحكمة، الحديث ٢٨٥٦، وكذلك غرر الحكم، الحديث ٢٩٣٦.

٢ - ميزان الحكمة، الحديث ٢٩٣٦، وكذلك غرر الحكم، الحديث ٣١٠٥.

كان سقراط يقول:

«ما يفيدنا هو أن نعلم: من نحن؟ ولِمَ خلقنا؟ وفيم سعادتنا؟ وأن نفعل ما فيه الخير لنا وللآخرين».

من هنا قيل ان سقراط هبط بالفلسفة من السماء إلى الأرض.

ما ذهب إليه سقراط ارتجز فيه الشاعر مولوي شعراً اجراه في سياق استفسارات وردود:

روزها فكرتم اينست وهمه شب سخنم
كه چرا فارغ از احوال دل خويشتم
از كجا آمده‌ام.؟ آمدنم بهر چه بود؟
به كجا ميروم آخر ننمايى وطنم
مرغ باغ ملكوتم نيم از عالم خاك
چند روزى قفسى ساخته‌اند از بدنم
من بخود نا مدم اينجا كه بخود باز روم
آنكه آورد مرا باز برد تا وطنم[1]

* * *

١ - معناها:

- «أفكر الأيام والأيام وأقول كل ليلة وليلة، لماذا أهمل أحوال قلبي؟»
- «من أين أتيت؟ وما كانت غاية مجيئي؟، إلى أين أذهب؟ فأنا لا أهتدي لموطني».
- «انا طائر روضة الملكوت،لست من عالم التراب. صنعوا لي قفصاً من بدني لأيام».
- لم أقدم إلى هنا بنفسي لأعود بنفسي، ذاك الذي أتى به يعيدني إلى موطني».

يقول الامام علي عليه السلام:-

- «الكيس من عرف نفسه وأخلص أعماله».
- «عجبت لمن يجهل نفسه كيف يعرف ربه».
- «من جهل نفسه أهملها».
- «من عرف نفسه فقد انتهى إلى غاية كل معرفة وعلم».

جئتك قبل هذا بحديث رائع عن بعض خصائص النفس لعلك تزداد تفكيراً في نفسك وذاتك ومعرفة بها.

جاء في كتاب «التوحيد» للشيخ الصدوق عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، قوله:-

«إن للجسم ستة أحوال: الصحة، والمرض، والموت، والحياة، والنوم، واليقظة». وكذلك الروح، فحياتها علمها، وموتها جهلها، ومرضها شكها، وصحتها يقينها، ونومها غفلتها، ويقظتها حفظها».

وسئل الإمام علي عليه السلام عن النفس الناطقة، فقال بأنها قوة لاهوتية، دنيوية منذ أن وجدت عند الولادة. وأردف عليه السلام: أن مقرها العلوم الحقيقية الدنيوية وموادها التأييدات العقلية وفعلها المعارف الربانية وسببها افتراقها تحلل الآلات الجسمانية، وانها عندما تنفصل عن الجسم تعود إلى مركزها اللاهوتي الذي أتت منه.. وتكون عودتها عن طريق المراجعة لا الممازجة».

* * *

لا أطيل عليك الكلام فقد ذكرت لك في بداية بحثنا أحاديث عن أهمية معرفة النفس. عساك أن تشمر عن ساعد الهمة في اكتساب هذه المعرفة إن شاء الله، وتشد رحال التقصي.. فألتزام أنا الصمت آنذاك.

من هذا الولهان؟ ومن يتقصى؟

إنك تسد جوع معدتك بكسرة خبز ثم تتخلى عن المائدة وإن كانت مليئة بالغذاء. رشفة ماء تذهب عنك العطش فتغنيك حتى عن البحار فلا تأبه بها. والجماع لا يجتذب إلا لدقائق ثم تنفر منه بعد ذلك. دار واحدة تكفيك للسكنى فإن ضاق طلبت الأوسع منها. ولما صارت الأوسع نصيبك تجد متاعبك وقد ازدادت. فتطمع للأصغر. إنها تمنيات جسمك.أما تمنيات نفسك فلا تعرف للاشباع معنى.

الانسان موجود لا نهاية لتحصيله إن هام بالعلم ولا تقنعه ثروة إن ران للغنى، ولا مقام إن أراد القدرة والهيمنة.

ونحن نستهل بحثنا لا تنس أن للغذاء والمتغذي شبهاً مع بعض. ولكن ما عرضت لك من أغذية النفس لم يكن بينها غذاء مادي قط. العلم، والقدرة، والشهرة والغنى كلها أمور معنوية. أما تلك التعلقات الدنيوية فإن كل منها انبثق من عضو. أمعن في هذه المتطلبات المعنوية. من أي عضو نشأت؟ من يرافقك في وجودك فيلتذ من العلم وتستهويه الصفات الحميدة ويعتز بالقدرة وينفر من الضعف والهوان؟ بالطبع يجب أن لا يكون الطالب مادياً بحسب قانون التشابه

والانسجام.

ثم إنك لا ترى لهذه المطالب إشباعاً. أين مبتغاه؟ إنك ترى بعض بني الإنسان يجهدون لعلهم يسخرون الكرة الأرضية طلباً للقدرة. لم يشبعهم ذلك فالمكوكات الفضائية صارت تجوب الفضاء في تقص وبحث دائم عن كرة أخرى تفي بهذا الغرض. وبالطبع يتضح من هذا أن الطالب ليس هذا الجسم والمطلوب كذلك ليس مادياً بل مجرداً. ولما لم يكن للطالب اشباع من المطلوب فإن المطلوب يرتقي مرتبة عالية دون شك وهو ما لا يبلغه الجهلة.

حسناً. التفت بشيء من التفكير أن الطالب ليس بدنك بل النفس الانسانية. النزاع مستمر منذ بداية خلقك بين متطلبات جسمك ونفسك فكلما ازدادت المتطلبات المادية الجسمية، صارت النفس على درجة اكبر من الانهاك والعتمة والجمود، وإن تفوقت المطالب الروحية السماوية تراجع الجسم أكثر. النزاع يتواصل حتى تكتسب في نهاية المطالب طابعاً أرضياً أو سماوياً!

دعني آتيك بمثال عن الشاعر مولوي على أمل أن أصيرك مجنوناً لصاحب الطلعة البهية. يتحدث مولوي عن مجنون ليلى يعتلي ناقة يقصد بها ديار محبوبته. جاذبية الوصال تسحبه كالريح إلى حيث يطلب. ولكن الناقة لا تصحبه فيجره ولهها إلى وكر حبها. شميم منزل ليلى يأتيه من هذه الجهة ورائحة روث مربط النياق من تلك الجهة. الناقة مجذوبة إلى تلك الناحية والمجنون إلى هذه.

مـــيل مـــجنون پـــيش آن ليـلى روان
مـــيل نـــاقه در پـــى طـــفلش دوان
يكدم ار مجنون ز خـود غـافل شـدى
نـــاقه گـــرديدى و واپس آمـــدى[١]

* * *

وا حسرتاه على الإنسان! نفسه على مطلوبها حريصة وفي طلبه جد مثابرة ولكن كلما تقدم في العمر ضرب الإرهاق والإنهاك أطنابه في أعماق جسمه أكثر فأكثر بينما النفس تزداد حيوية وريعاناً.

فيا أيها العزيز! ما أسعدك إن أنت أنـهيت هـذا الصـراع فـي أوان شبابك إذ لا طاقة لك في شـيخوختك وأوان هـرمك عـلى خـوضه. فبمرور الزمان نشعر اننا كنا بالأمس أفضل مما نحن اليوم. وما أتعسنا إن كانت الحياة قد عادت بنا على مرَّ سنينها فراسخ إلى الوراء.

﴿إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي﴾.

لا حيلة لنا إلا التنازل عن الناقة. في حكاية مولوي يـنهي قـيس صراعه مع الناقة بإلقاء نفسه ارضاً ولما تعرضت ساقه للأذى يواصل دربه زحفاً على الأرض ليرى نفسه أخيراً قبالة محبوبته فكل خطوة

---

١ - معناهما:

- «رغبة المجنون تشده إلى حيث ليلى، ورغبة الناقة إلى حيث صغيرها».

- «لو غفل المجنون للحظة، لغلبته الناقة وانساق لاتجاهها».

تسقيه مائة كأس وآلاف اللذات. ولماذا لا ننطلق؟! لِـمَ لا نـزحـف؟! نسحب صدورنا أرضاً ونضني أجسامنا تعباً. أليس هذا بأفضل مـن الجمود أو المراوحة في المكان؟ يقول تعالى ﴿قوموا لله﴾. ليس عليك إلا أن تنطلق من مأواك. يقول عز من قائل: «من يخرج من بيته»، ما عليك إلا ان تخرج من مستقرك وتعزم على الهجران. فأنت تعرف أن مرجعك ومطلوبك هو نفس مبدأك ومنطلقك الذي فُرضت عليك العودة إليه.. اطلق عنان نفسك، سوف تجد المطلوب يسعفك. غض النظر عن ناقتك فإن كانت تحملك بأطراف أربعة إلى ديار الحبيب، فهنا تُـمنح مئات الأجنحة تحلق بها إليه.

أعود وأقول إن رحلتك هذه باطنية.المسير في نفسك والطالب أنت والمطلوب معك. فكل ما يهبط بك إلى ما دون المطلوب يخسس قدرك وما يقربك منه يزيدك شرفاً، وهذا الهبوط والسمو كله إنما هدفه بلوغ الإنسان كماله. كلها لطف، كلها رأفة، كلها ربوبية، كلها حب.. وغايتها جميعاً تحويل مكنوناتك إلى طور الفعل. إنها قواعد السلوك وضـعت لك. شق الطريق من أجلك وغايته قربك إلى مـحبوبك الذي يـطلبك بدوره. ما عليك إلا التجلد فكلما كنت أكثر اعتزازاً بالمطلوب صعب سلوك الدرب إليه أكثر فأكثر.

العلم الشهودي بوابة قارة الباطن:

اخبرك أيها العزيز ان المسير يبدأ من الباطن. فأنت إن وليت وجهك شرقاً فأنت أنت وإن اتجهت غرباً فأنت تظل أنت. وهكذا إن ارتقيت الى السماء أو هبطت الى الأرض أو حتى إلى أعماقها.

فأنت إن لم تحقق، في مقامك هذا، وصاله فلا سبيل أمـامك إليـه إينما تقصيته. وإن تذرعت بأنك تقصد دياراً فيها رجل الهـي يـهديك السبيل فغايتك لا تتحقق بالرحيل إلى ديار ما بل عند الاتصال بالنفس والتوغل في أعماق الذات.

والغافل هو من وطأت قدماه سطح القمر لأول مرة ولما عـاد إلى الأرض كان أول كلام له هو: «حتى السماء ارتدناها ولم نـعثر عـلى الله».

كلامه ذكرني ببيت من الشعر للشاعر سعدي الشيرازي، هو

خر عيسى گرش بـمكه بـرند   چون بيايد هنوز خر باشد[1]

* * *

---

١ - معناه:

- «بغلة عيسى حتى لو تؤخذ إلى مكة، تعود وما تزال بغلة».

ويوماً ما قال قرة عين عرفاء العالم، الإمام علي ﷺ: «سلوني قبل أن تفقدوني»، سئل عن المسافة إلى عرش الله. انبهك أن تمعن التفكير بتركيز في ردّه. إنه أجاب بانها تعادل زمناً يستغرقه أي عبد مخلص وهو ينطق عبارة: «لا إله إلا الله».

ومعنى ذلك أن الله هو هاهنا، إنه معك، ومعيته تتماثل مع جميع عالم الوجود. فإن كانت عينك بصيرة فإنها سوف ترى تجلياته في الأرض وفي السماء، سوف تراها إن صوبت نظراتك في جهة الشرق وتراها في الغرب أيضاً. ولكن تنبه إلى أن الكلام جرى في حديثه عن العبد المخلص والمخلص هو من قطع اتصالاته جميعاً بغير الله وخلص إليه. فالقادر على رؤية العالم الخارجي يتعذر عليه النظر في الباطن. ومن يرى الباطن لا يرى الخارج. ورحلتنا هذه رحلة استكشافية في الباطن ومن عثر على بوابة الباطن كانت محطته التالية الإحاطة بالعلم الشهودي أي معرفة النفس بالنفس. فالبدن لا يقوم إلا بالنفس فقيّومه هي النفس ولكن النفس تقوم بذاتها.

إنك عند تطلعك إلى ذاتك سوف تحسن النظر في ذاتك أكثر إن أطبقت جفنيك. فأنت لا تريد النظر إلى اليدين والساقين والرأس بل إلى النفس. انك تنظر إلى ذاتك! فابدأ السير في آفاق نفسك.

فهذا النظر يتجرد كل التجرد عن تلوثات المادة. فلا أثر للمشاهد فيه أساساً. بل قوامها تجليات النفس البحتة للإنسان ذاته. إنها تتجلى له بمثل هذا النظر والتأمل. هذا هو الطريق إلى معرفة النفس، فافتح بوابتها لتلج هذه الديار ولترى ما سوف ترى! لا أرانيك الله مبهوتاً

ثملاً! دعني أزيدك شرحاً في تفصيلات الموضوع.

يقسم المفكرون ينابيع الفكر فيالعالم إلى ثلاثة:-

- النقل: الذي يستمد منه بحث الالهيات كل وجوده،

- والعقل: وهو مصدر علوم الفلاسفة وكلامهم،

- والكشف والرؤية الشهودية أي المعرفة القدسية والملكوتية وهو المطلوب للالتحاق بجامعة علمه الشهودي. هنا لا حاجة لنا بالوسيط والكتاب والمعلم.

وكلما ازدادت النفس نأياً عن المادة كانت أكثر تأهباً للسير في هذا المسير. فلا سبيل لك إلى ذلك العالم ما دام القلب مرتعاً لحب هذه الدار واللسان لَهِجاً بذكرها والعين مولهةً بالنظر فيها. ما يلزمك هو التحرر والانطلاق. فالتحرر يمنحك صفاء الباطن.

«إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار».

في هذه المرحلة، احجب أذنيك عن سماع ما يتناهى إليهما من أصوات تردهما من الخارج، وعينيك عن النظر فيما حولك.. توجّه بكلك إلى الباطن، وحلق في أجواء نفسك فأحد كبار العرفاء عندما سئل ماذا ترى عين الباطن إن هي أبصرت، أكد أن عين الباطن لو تفتحت وأُسدلت عينا الظاهر وأطبقت الشفتان وحُجّرت الحواس الظاهرية الخمس، ومن ثم وُظفت حواس الباطن لكي يكون كل مكتسبات الانسان متأتية من فعل الباطن وكل ما يرى يبصره بعين الباطن وما يسمعه إنما يكون بأذن الباطن وما يشمه فهو بشامة باطنه،

عندئذ يواصل مطالعة اسرار السماوات ويسترسل في الاطـلاع عـلى عالم الغيب.

باهتدائك إلى هذا المسير تلتفت بانك قادر على الرؤية دون عـين الرأس وعلى الاستماع مستغنياً عن هذه الأذن وحتى عن جسمك هذا لمواصلة العيش. هنا تتجلى لك أسرار حديث النافلة حيث يروى ان رسول الله ﷺ قال:

- يا رب، ما حال المؤمن عندك؟

قال: يا محمد! ما يتقرب إلي عبد من عبادي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وانه ليتقرب إليّ بالنافلة حتى أحبه. فإذا أحببته كنت إذاً سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر بـه ولسـانه الذي يـنطق به،ويده التي يبطش بها. إن دعاني أجـبته، وان سألنـي اعـطيته».[١] وتتوثق من أن ذلك العبد الصالح «ما ينطق عن الهوى».

أرهف السمع لأحدثك عما نطق به كشاف عالم النفس نبينا محمد ﷺ «ما من عبد إلا ولقلبه عينان وهما غيب ويدرك بهما الغيب، فإذا أراد الله بعبد خيراً فتح عيني قلبه فيرى ما هو غائب عن بصره».[٢]

هل ترى ما أعظم أمور غفلنا عنها وكأننا في سبات! وما أسـطع أنوار عالم الوجود ونحن غرقنا في ظلمات. ما أزكى روائح لا نقوى على استشمامها وقد عجت في الفضاء بما فيها من طبقات.

---

١ - اصول الكافي، المجلد ٢.

٢ - عن كتاب «الوافي»، المقدمة الأولى.

قال رسول الله ﷺ:

«لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى مـلكوت السماء».

باطن في بوران وخارج زاخر بالعمران

اخترت السكنى على أنقاض تعود إليك ما لكيتها.. ليس لديك فيها سجاد تفرشه ولا أثاث ولا غرف ولا أبواب ولا راحة ولا نوم. فكرك دائم الانشغال بالأزقة وبشوارع المدينة، حتى غفل تماماً عن مسكنك ومكانك. من هنا لم تعد تتذوق الهدوء والراحة. هذه حكاية كل من غفل عن باطنه، عن نفسه، عن ذاته ويشغل باله على الدوام بهذا وذاك أو بالعالم. ولكن اعلم أنك إن وفقت في ادخار أدنى رصيد باطني فذاك يغنيك عما سواه من ثروات طائلة إذ لا ينفعك ما لغيرك من رياض أزهار وبساتين وقنوات مياه.

فالمتنعم بدفء باطني في غنى عن الدفء الخارجي. قرأت عن الشاعر الإيراني بابا طاهر الهمداني أنه لما كان يقع على سفوح جبال «الوند» ساجداً سجدة طويلة في أجواء همدان الشتوية القارصة تبدأ الثلوج المحيطة به بالذوبان بتأثير حرارة نفسه.

الناس جميعاً يتقصون البهجة والدفء من العالم الخارجي بينما الحقيقة تكمن في الباطن. فإن كان للعالم الخارجي حقيقة فإن كل حقيقة تعود لصاحبها، وأنت لا تفهم حقيقة الآخرين ما لم تتنبه لحقيقة نفسك.

يروى أنه كان لثري إلى جانب قصر إقامته مبنى متهدم فرأى ذات يوم زاهداً يسكنه، أبهره حاله. فكيف يمكنه السكن في مثل هذا المكان؟ في ليلة ممطرة والسماء عاصفة ترشق الأرض بوابل البرق، ذهب النوم عن مقلتي صاحب القصر، استغرق في التفكير: المسكين ذلك الزاهد، ما هو حاله الآن يا ترى؟ نهض من مكانه وفتح باب منزله. كان الوقت منتصف الليل. وجد الزاهد قد اضرم النار في قطع من الحطب وانشغل بالجلوس إلى موقده.

قال: كيف تقضي أمورك أيها الزاهد؟

أجاب: خيراً.

قال: أرفقني إلى منزلي إن كنت في ضيق.

قال: خيراً.

عاد الرجل إلى منزله مندهشاً فعمت عاصفة موحشة وحال دوي الرعد من سماع ما سواه من أصداء. قال الرجل في نفسه: ازدادت الأوضاع عسراً سوف ينهار سقف المبنى المتهدم اللحظة. عاد إلى الزاهد وحذره من الخطر المحتمل. فلم يكن من الزاهد إلا أن عاد للقول: خيراً.

أقفل الرجل عائداً إلى منزله غاضباً فلجأ الى فراشه وما أن أخذ النعاس يتسلل إلى جفنيه حتى سمع دوياً أفزعه، ولما تقصى الأمر التفت إلى أن الصوت نشأ عن انهيار سقف المبنى المتهدم، ولكن الوقت تجاوز منتصف الليل ولا حيلة له في مثل هذا الوقت. عزف النوم عن عينيه حتى الصباح. انشغل باله بالتخطيط لإخراج جثة الزاهد من

تحت الانقاض ومن ثم دفنه. ولما حل الصباح دعا إليه عدد من العمال لإزاحة الانقاض والتربة والعثور على جثة الزاهد من تحت الانقاض ومن ثم دفنه.. وبعد ساعات من التنقيب وجدوا ألواح السقف قد سقط نصفها وثبت نصفها في محله. والزاهد ما زال واقفاً إلى جانب موقده. قالوا: أيها الزاهد! أوَ انت حي؟!

قال: خيراً.

فيا أيها العزيز أقم في باطنك روضة أزهار فمن له مثل هذا، زخر منزله بالأزهار حتى في الشتاء.

أجد الشاعر جلال الدين مولوي يهمس في أذني: أنك لم تنقل عنّا إلا الشعر، ولنا نثر أيضاً.. فهل لك أن تعرج عليه هو الآخر؟ قلت: سمعاً وطاعة. جئت بكتابه «المجالس السبعة» فما أن فتحته حتى وقعت عيناي على هذه العبارات فارتأيت أن أطلعك على نثره أيضاً. دعنا نقرأ سوية:-

«هل يخيل إليك أن منتهى الاسراف هو انفاق دراهم عدة عبثاً أو حتى بضع أطنان من القمح بلا هوادة؟ أو تهدر إرثاً في العشرة هباء. فالإسراف الاعظم هو أن يذهب العمر الثمين سدى. فساعة منه لا تعود بمئات آلاف الدنانير حيث أن (اليواقيت تشترى بالمواقيت والمواقيت لا تشترى باليواقيت)، أي أن العمر لو أمهلك فبامكانك أن تكسب اليواقيت والدرر ولكن ليس لمئات آلاف اليواقيت أن تُشترى بها مواقيت العمر».

فليخرب الخارج مادام الباطن معموراً:

كنت ومجموعة من أصحابي عائدين من زيارة للعارف آية الله جواد آقا الانصاري الهمداني (قده) في مدينة همدان (ايران) فبتنا الليل في فندق بطهران ونفوسنا ثملى من شذى حضرته الفواح. حلقنا حول بعض والرؤوس مطأطأة، كل يترنح في روضة أزهار نفسه. تأملنا صاحب الفندق، وهو ممن يجهلون هذه الحالات، لدقائق ثم حطم طوق ذلك الصمت وتساءل: ايها السادة، هل حلت بكم مصيبة؟ قال أحد الزملاء وكأنه ألقي من السماء حيث حلق إليها بنفسه: اجل! لقد حلت بنا اللحظة.

هنالك اشارة لطيفة لك في إدراكها خير عون على معرفة الذات هي أن معرفة العالم الخارجي تتم في الباطن. انك ترى بستاناً عندما تتكون صورته في خلايا الدماغ عن طريق العينين، والنفس تتطلع إلى الصورة من وراء هذه الخلايا. فالنفس الإنسانية لا تملك غير ما يعطيها الله. مر بنا أنها في فقر مطلق. وكل ما لها هو ارتباطها بالله. وما تتلقاه هو قبس من نور العلم العلوي وليس العلم ذاته. من هنا فأية معرفة للحقيقة لا تنجز إلا بالله. هذا ما تعنيه عبارة «بك عرفتك» المذكورة في دعاء كميل بن زياد.

إذاً، ما يدرك من العالم الخارجـي هـو قـبس مـن أنـوار النـفس الإنسانية انعكس على العالم وكأنه صورة ظهرت عـلى سـطح المـاء سرعان ما تزول. النتيجة تحددها النفس بسلوكها، فإن كان بها تعلق بالخارج غاب المحبوب وانقادت النفس للصورة وإن رأى تجلي الله ربه في تلك الصورة صار أنيساً لذاك المحبوب حيث أن:-

﴿كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام﴾.

وإنكار هذه الحقيقة بالذات هو الذي أغرق العالم في لجج الغرور، أي «الخديعة».

انعكاسات صفاء النفس وتزكيتها:

الآن وقد جردت واحة قلبك عن الأغيار، وفتحت أبوابها واسعاً للحبيب دون سواه، وطهرت الدار مما كان فيها من اوحال واتيت، بالأزهار، اشكر سماءه ليدر عليك بفيضه المدرار وليكن فيضه أمطاراً من المعرفة والعلم وأنوار الالهام من رب عزيز متعال، حيث يقول جل شأنه:-

﴿واتقوا الله ويعلمكم﴾.[1]

إنها معرفة ليست كمعارف تكتسب بالدرس ومطالعة الكتب بل بإشعاع نور رحيمية الحق.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «ليس العلم بكثرة تعلم بل هو نور يقذفه الله في قلب من يشاء».

إنه نور يشع في البدء كوكبياً ثم يتحول فرقدانهُ[2] إلى زهرة ومن ثم زهرته إلى قمر وقمره إلى شمس. فإن كنت لا تصدقني أنا عبد الله

١- سورة البقرة، الآية ٢٨٢.

٢ - الفرقد: اصغر النجوم في الدب الأكبر، قريب من القطب الشمالي، يهتدى به. وهما فرقدان أحدهما أظهر من الآخر.

الآثم فاستمع إلى كلام من الائمة:-

يقول الإمام علي عليه السلام:

«إن الإيمان يبدو لمظة في القلب، كلما ازداد الايمان، ازدادت لمظته».

كما قال الإمام محمد الباقر عليه السلام:-

«القلوب ثلاثة:

- قلب منكوس، لا يعثر على شيء من الخير، وهو قلب الكافر،
- وقلب نكتة سوداء، فالخير والشرفيه يعتلجان، فما كان منه أقوى غلب عليه،
- وقلب مفتوح فيه مصباح يزهر، فلا يطفأ نوره إلى يوم القيامة، وهو قلب المؤمن».

والمقصود من القلب المفتوح في الحديث الآنف هو كل قلب فتحه الله لاستيعاب العالم العلوي فيتجلى فيه ما لا يتجلى في غيره وتسمو عظمته حتى تجعله تشرق عليها شمس الحقيقة الوضاءة في كل لحظة وحين.

أعود لأذكر عبارات، فيما يخص منزلة العبد المقرب الى الحق، من حديث المعراج الذي نقلته لك مسبقاً من كتاب ارشاد القلوب للديلمي:-

«يا أحمد هل تدري أي عيش أهنأ، وأي حياة أبقى؟ قال:اللهم لا.

- قال: أما العيش الهني فهو الذي لا يفتر صاحبه عن ذكري، ولا ينسى

نعمتي، ولا يجهل حقي، يطلب رضاي ليله ونهاره، وأما الحياة الباقية فهي التي يعمل لنفسه حتى تهون عليه الدنيا، وتصغر في عينه، وتعظم الآخرة عنده، ويؤثر هواي على هواه، ويبغي مرضاتي، ويعظمني حق عظمتي ويذكر عملي به ويراقبني بالليل والنهار عند كل سيئة ومعصية.

وينقي قلبه عن كل ما اكره، ويبغض الشيطان ووساوسه، ولا يجعل لإبليس على قلبه سلطاناً وسبيلاً، فأذا فعل ذلك أسكنت قلبه حباً اجعل قلبه لي، وفراغه واشتغاله وهمه وحديثه من النعمة التي أنعمت بها على أهل محبتي من خلقي، وأفتح عين قلبه وسمعه حتى يسمع بقلبه وينظر بقلبه إلى جلالي وعظمتي.

وأضيّق عليه الدنيا وأُبغض إليه ما فيها من اللذات. واحذره الدنيا وما فيها كما يحذر الراعي غنمه من مراتع الهلكة وإذا كان هكذا يفر من الناس فراراً وينتقل من دار الفناء إلى دار البقاء ومن دار الشيطان إلى دار الرحمن».(١)

التفت إلى أن الموضوع يدور هنا حول سماع كلام الله. موضوع تنامي أوتاد القلب برعاية اليد الربوبية لرب الأرباب.

قال رسول الله ﷺ:-

«قلب المؤمن بين اصبعين من أصابع الرحمن».

ألا تعلم أن الطين الخزفي يمتزج بالماء ويتواصل قلبه، وكلما أُكثر

---

١ - المجلد (١) ص ٣٧٩.

دعكه ازدادت جودته، ثم يودع في أفرانه فيعاني ويكابد لساعات عدة مما يتعرض له فيها من دخان ونار. ثم يتم تبريده ويبعث به إلى الأسواق. ولما ينال الإعجاب يُحمل هدية فيغدو وعاء لما استسيغ من أشربة.

والقمح يبعث به إلى المطاحن ليضغط بين حجري الرحى، تسحقانه فتتغير ماهيته. هكذا يصير القمح دقيقاً ثم يحبس في أكياس جوالة، ويسجن بعدها لأيام وأيام في معتقل المستودعات. ولما يتحرر منها يمزج مع الماء ويدعك ويعالج بقوة ويترك حتى يتخمر ثم تسلط عليه النار ويخبز ليكتسب جدارة إطعام سلطان العالم، ألا وهو الإنسان، فيلج بذلك باطنه.

كان لك في هذين المثالين هدى لمعرفة معنى تنامي أوتاد القلب بين أصابع يد الله وتدرك السر في هذه التقلبات في يد الرب الرحمن، فما يكون من الرب إلا الربوبية والتنمية، إنه رب ودود.

يقول أحد العرفاء:- تعلق كل شخص بالأشياء يتعمق كلما ازداد شغفاً بها. وليس لله بين مخلوقاته أحب إليه من قلب إنسانه. فيمسك بيده إن نزل بها فخيراً وإن رفعها فخيراً وإن قبضها فخيراً أو بسطها فخيراً أيضاً، فليس لها إلا الخضوع له، حقاً ما أروع قلب المؤمن، إن صفى ونقى فُتحت فيه عينان يرى بهما عالم الغيب.

يقول رسول الله ﷺ:-

«ما من عبد إلا ولقلبه عينان وهما غيب ويدرك بهما الغيب، فإذا أراد

الله بعبد خيراً فتح عيني قلبه فيرى ما هو غائب عن بصره».[١]

اذكر لك كل هذا كي لا تستحقر نفسك أو تستصغر شأنك فقد وهبت نفسك جدارة كل هذه العظمة وقابلية التحليق إلى مثل هذا السمو. إجهد قبل حلول موعد الموت لتبلغ مرتبة تستحقها. فما أغبنك إن ارتضيت لنفسك الموت وأنت في أعماق هذا الوادي السحيق.

فإن لم يقنعك كلامي، دعنياسمعك حديثاً عن رسول ربك ﷺ، حيث يقول ناصحاً أبا ذر:-

«يا أبا ذر! إياك والتسويف بأملك. فانك بيومك. وليستَ بما بعده. فإن يكن غد لك، فكن فيالغد كما كنت في اليوم. وإن لم يكن غد لك لم تندم على ما فَّرطت في اليوم.

يا أبا ذر! كم مستقبل يوماً لا يستكمله، ومنتظر غداً لا يبلغه.

يا أبا ذر! لو نظرت إلى الأجل ومصيره لأفضت الأمل وغروره.

يا أبا ذر، كن كأنك فيالدنيا غريب، أو كعابر سبيل، وعد نفسك من أصحاب القبور.[٢]

وإن استزدتني أزيدك حديثاً آخر عن الإمام علي عليه السلام:

«يا دنيا! يا دنيا! إليك عني، أبي تعرّضت؟ أم إليّ تشوّقت؟ لا حان حينك.. هيهات غرّي غيري. لا حاجة لي فيك، قد طلقتك ثلاثاً لا

---

١ - انظر كتاب «الوافي».

٢ - ميزان الحكمة، الحديث ٢١٧٤٣.

رجعة فيها. فعشك قصير، وخطرك يسير وأملك حقير، آه من قلة الزاد وطول الطريق، وبعد السفر وعظيم المورد».[1]

١ – ميزان الحكمة، الحديث ٧٤١٥؛ وتحف العقول، ص ٢٢٠.

تغني العرفاء، معناه ومفهومه:

غناء العرفاء ليس غناء الآلات والطنابير، فلتلك الطنابير زنابير أيضاً. مسامع النفس عندما تستأنس بأنغام الباطن لا تطرب بعدها بأنغام العالم الخارجي بل لا تسكرها حتى آلاف كؤوس الخمر من خارج النفس ولها في الباطن مئات الآلاف.

أول نغمة عزفتها يد الحق على آلة الوجود هي نغمة «ألستُ بربكم» فطربت لرنينها نفوس عرفاء «قالوا بلى» هاتفين:-

تا كه بگوش جان من رمز ألست گفته‌اند

هيچ برون نرفته است از دلم آرزوى او[1]

فهذه النغمة تداعب روح العرفاء إلى الأبد وقد أشار ذو النون إلى غناء العرفاء موضحاً بأنه مخاطبات وإشارات أودعها الله سبحانه وتعالى في قلوب الرجال والنساء. وهو القائل أيضاً بأن الحق سبحانه

---

١ - معناه:

- «منذ أن تردد على مسامع نفسي نداء «ألست»، لم يتخل قلبي قط عن طموح قربه».

وتعالى بعث وارداً يدعو القلوب إلى حضرة الحق.

فمن أزاح الحجب عن سر التوحيد كان له في كل صوت سمعه من عالم الوجود طرب وحماس. ذلك ما لا يستوعبه إلا من فهم حقاً معنى الآية:

﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾.

فإن بلغ بتفقهه واستيعابه مثل هذا المقام، فإنه يغدو كما كان من الشاعر مولوي وأصحابه الذين طربوا في سوق «قونيه» لأنغام مطرقة الحدادة. ومن جهل كنه هذه الأنغام لا طائل له من أنغام آلاف الأنامل والآلات.

على أية حال السماع العرفاني معناه اطلاع مسامع السالك إلى الله على نداء الغيب .

ذات مرة كان الإمام علي عليه السلام يمر بمكان فتعالى فيه صوت الناقوس. سأل أصحابه عما إذا كانوا يفهمون ما يقول؟ أجابوه بالنفي فقال:

«سبحان الله حقاً حقا، إن المولى صمدٌ يبقى».

فكانت هاتان العبارتان متناغمتين بالضبط مع رنين الناقوس. كان دون الآخرين قد سمع نداء الناقوس بمفهومه العرفاني.

وهكذا أمر أنين الجبل وتأوهه عندما تردد بمفهومه العرفاني في نفس النبي داود عليه السلام دون نفوس من كانوا معه. ولِمَ لا وهي المسخَّرة له بحسب ما جاء في الآية:-

﴿يا جبال أوبي معه والطير وألنّا له الحديد﴾.[١]

١ – سورة سبأ، الآية ١٠.

لله حديث مع أوليائه:

لا تذهبن بعيداً في هذا السياق وبأننا نعني به مثل كلام اللـه مـع كليمه النبي موسى عليه السلام أو سائر مبعوثيه، فكم كان له حديث معهم دون وسيط حيث يروى أن بعض الآيات كانت تتنزل دون شك على قلب نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم دون وساطة جبرئيل عليه السلام. فكان يـرتعش ويشـحب. وقد يـغمى عـليه عـند تـلقيها حـتى وجـهت إليـه حـاشاه وصـمة «المصروع». فآثار تجلي جلاله لعلى عظمة ربما لم يقوَ على تـلقيها قلب رسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم.

على أية حال، هذا ما شهده كثير غيره من أولياء اللـه، ولكـي لا تستبعد مثل هذا آتيك بفقرة أخرى من حديث المعراج فيما يخص كلام الحق تعالى وبشائره لأوليائه:

«يا أحمد..

فمن عمل برضائي ألزمه ثلاث خصال: أعرفه شكـراً لا يـخالطه الجهل، وذكراً لا يخالطه النسيان، ومحبة لا يؤثر على محبتي مـحبة المخلوقين، فإذا أحبني أحببته وحبّبته.

وأفتح عين قلبه إلى جلالي، فلا أخفي عليه خاصة خلقي، فأناجيه

في ظلم الليل ونور النهار حتى ينقطع حديثه مع المخلوقين ومجالسته معهم وأسمعه كلامي وكلام ملائكتي وأُعرفه السر الذي سترته عن خلقي، وأُلبسه الحياء حتى يستحي منه الخلق كلهم، ويمشي على الأرض مغفوراً له».(١)

وما أنعش السماع لكلام الله وملائكته في مثل هذه الأحوال. وما أعظم ما يثيره سماع هذه النغمة من حماس وحيوية في نفوس الوالهين. يسيل لعابي لمثل هذه الأحاديث وتترقرق الدموع من منحدر رموشي. فهل لمثلي أن يطمح لنيل مثل هذه العطايا؟ إننا نقرأ في فقرات من أحاديث الائمة عليهم السلام عبارة «سمعت الله» وليس: «قال الله». هذا ما يجدر الالتفات إليه. فكيف يُسمعهم الله كلامه بنفسه؟ فلأقرأ عليك أحد هذه الأحاديث.

يروي الشيخ الصدوق (ره) في المجلس الثاني من أماليه عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال:-

«عجبت لمن فزع من أربع كيف لا يفزع إلى أربع. عجبت لمن خاف كيف لا يفزع إلى قوله: «حسبنا الله ونعم الوكيل»، فإني سمعت الله عز وجل يقول بعقبها: ﴿فانقلبوا بنعمة من الله وفضلٍ لم يمسسهم سوء﴾.

وعجبت لمن اغتم لا يفزع إلى قوله: «لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين»، فإني سمعت الله عز وجل يقول بعقبها: «فنجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين».

---

١ - ارشاد القلوب، الديلمي، ج(١)، ص ٣٨٠.

وعجبت لمن مكر به كيف لا يفزع إلى قوله: «افوّض امري إلى الله، ان الله بصير بالعباد»، فإني سمعت الله عز وجل يقول بعقبها: ﴿فوقاه الله سيئات ما مكروا﴾.

وعجبت لمن أراد الدنيا وزينتها، كيف لا يفزع الى قوله: «ما شاء الله لا قوة إلا بالله» فإني سمعت الله عز وجل يقول بعقبها: ﴿ان تَرَني انا أقل منك مالاً وولداً فعسى ربي أن يؤتيني خيراً من جنتك﴾.

ولك أن تلاحظ تكرر عبارة «سمعت الله» في هذا الحديث. لم يقل ﷺ: «قال..» بل «سمعت..» أي سمعه بنفسه.

فيا أيها العزيز، للمولى حديث مع عباده، وسوف تنعم بلذة حديثه متى ما صرت عبداً له دون سواه، فقد كان المعراج جلسة حوار بين العبد والمولى. ألم تسمع كيف هيئت وزينت له جميع الوسائل والسبل في تلك الليلة المباركة الزاخرة بالوصال. لقدافتتح رقعة دعوته بذكر مقام عبودية الانسان:

﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾.

ونحن في الصلاة نشهد بتتويج حامل لقب الرسالة أولاً بتاج العبودية، عندما نقول: «أشهد أن محمداً عبده ورسوله». فلو كنت لمثل هذا العروج طامحاً، صيِّر نفسك له عبداً.

ألم تسمع قوله:

«جذبة من الحق أفضل من عبادة الثقلين».

عسى أن نرزق لمحة من هذه الجذبة، والا فهل لنا أن نعتلي قمم

هذه الجبال بقدرتنا المحضة؟!

اسمع اشارة أخرى:

يذكر الإمام فخر الدين الرازي في شرح كتاب الإشارات، أنه في ليلة نال فيها النبي محمد ﷺ شرف وصال الله وفتحت أبواب العروج أمامه سأله الله تعالى بأي شيء يستقبله ويتحفه؟ فطلب منه ﷺ أن يجعله بمعيته ويصيِّره عبداً لجلاله.

فجاء الخطاب: «سبحان الذي أسرى بعبده»، فلما كان طموحه أن يكون الله له رباً رضي الله به عبداً.

ما هي حقيقة العبودية؟!

عزيزي! كلنا نطمح لنيل مقام اليقين. ولما كنت ترجو بـلوغ هـذا المقام ينبغي لك أن تجعل لك في ديار عبوديته موطئاً فقد قـال عـز وجل:

﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾.

والآن صيّر نفسك إلى ما أشرت عليك حتى الآن. ذكّرتك أن تبدأ رحلتك من باطنك. فكل ما لهذا الهيكل الجسمي إنما هو من النفس. تقدم خطوة إلى الأمام. فمن أين للنفس ما تـملكه؟ تـعود لتـرى أن نفسك ليست إلا ارتباطك بذات الحق تعالى، النفس نور يـربطك بـه، فكل ما للنفس منه وما للجسم يعود للنفس. فهل تخبرني عـبد مـن تصيّر نفسك لو تنكرت لعبودية موجدك وربك ورازقك؟

لم أسمع قط في معنى العبودية كلاماً أثمن من كلام الشيخ عبد الله الأنصاري حيث قال ما معناه:

«أنت عبد لمن كبلت نفسكَ بوثاق عبوديته».

إختلِ بنفسك، تفحص برنامج حياتك. كيف تقضي وقـتك مـنذ أن ترفع رأسك من وسادتك مستيقظاً في الصباح حتى تضع رأسك ثانية

عليها وأنت تلجأ إلى النوم في المساء؟ من نصيرك؟ ما هي تجارتك؟ ما هو اتجاهك؟ عم تبحث؟ بمن تعلقت؟ لمن عشقت؟ إن كان اتجاهك نحوه، فهو عونك ونصيرك، وهو تجارتك وإليه مآلك، وهو ضالتك وموضع تعلقك وولهك، حياتك حياته. ما أسعد هذا الإنسان!

إلهي! في منزلك أسكِنّا، وعن سكنى دار الدنيا أغننا ولسبل عبادتك اهدنا وعن الانشغال بهموم الدنيا امنعنا، ولعيننا اكشف جمالك كي لا ننشغل بالنظر إلى غيرك، وفي افئدتنا اجعل مراتع حبك لتسد ابوابها إزاء حب سواك.

استمع إلى الهروي الأنصاري، فما أنعش كلامه:

«إن ينادني ذات مرة: عبدي، يبلغ العرش صدى ابتهاجي وضحكي».

ونحن، وطموحاً منا لنيل ابتهاج المحلق إلى الله، لم نبالِ بتحطم اجنحتنا. فكم من مرة ومرة فتحنا اجنحتنا وسقطنا أرضاً. بعزتك لا نقوى على التحليق إلا بجذبتك، أرياشنا تهشمت وتساقطت، اجنحتنا كلت، السبل اوصدت ولكننا ما زلنا نعلق أنظارنا نحو السماء.

ما حيلتنا ودر العبودية أخاذ أخاذ. ألا تعلم أن أكبر جواهر الدنيا هو جبل النور وبحر النور. انهما قد يتحولان رماداً بعود ثقاب واحد. فالنور هنا، السرور هنا، كل شيء هنا يبث الشعور بالاعتزاز. إن لم يقنعك كلامي استمع إلى كلام مولانا الامام جعفر الصادق عليه السلام:-

«العبودية جوهرة كنهها الربوبية فما فقد من العبودية وجد في الربوبية وما خفي عن الربوبية أصيب في العبودية».

تكمن في هذه العبارات المحدودة أسرار في قمة العظمة:

- أولها: أن العبودية جوهرة، جوهرة وضاءة، درة فريدة لا مثيل لها قط.

- وثانيها: إن مشيئة الله تعالى اقتضت في سياق تحديد نهج العبودية أن يتجلى باسم «الرب» أي أن عناء العبودية والعبادة إنما هدفه كله تربية العبد. صومه، صلاته، دعاؤه كلها أمور تدبرها يد ربوبية الله أي أن كنه العبودية هي الربوبية وتربية العباد. وربوبية الله هي المدبرة لجميع الأمور.

إذاً، كنه العبودية هي الربوبية وتنشئة العباد حتى يكتسب المربوب هو الآخر طابعاً ربوبياً.

- وثالثها: ما تخسره في هذا السبيل تجده حاضراً هناك:

﴿إن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾.

فمن يبذل الصدقات في سبيل الله مثلاً لم يخسرها، فسيُعطى عشرة أضعافها عند وصوله بيت القصيد بل قد يمنح سبعمائة ضعفها لأنه لم يلقها في البحر بل قدمها إلى ربه حيث:

﴿إن الله يأخذ بالصدقات﴾.

- ورابعها: ما يخفى عليك في المقامات الربوبية بمقدورك أن تكشف عنه في مقام العبودية فبالعبودية تصقل مرآة النفوس وينعكس فيها جمال المحبوب الأخاذ للقلوب والألباب.

فيا عزيز النفس! التحرر من قيود الذلة أمر سهل بسيط أوله الفناء

في ذات الله ونسيان الذات وآخره توحيد الرب ولقياه. فاشدد رحلتك لتخوض الرحلتين فتتحرر من أسر الذلة وتبلغ عز العبودية ومنتهى العزة.

فالعبد هو من يعرف تابعيته المحضة وأنه ليس له من عنده شيء، وكل ما له فانه من وليه. هذا ما يفهمه الجميع بعد الممات ولكن ما الجدوى منه حينئذ؟

﴿يومئذ يتذكر الانسان. وأنّى له الذكرى﴾.[1]

فلتستوعبن هاهنا أن قولك: أفعالي، حياتي، مالي، كلها منه وله:

﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين﴾.[2]

في مثل هذه الحالة يداعب عبير العبودية مشام النفس. فالعبودية مبذولة للجميع قسراً في دار الآخرة وخياراً في دار الدنيا:

﴿إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً﴾.[3]

تغاض عن ذاتك الآن لتحلق بخفة دونها، دع عنك تعلقاتك ليتسنى لك تركها، لا تتشبث بهذا المقعد فسرعان ما تتجرد عنه. هل تسمعني؟ كل هذه حقائق أنت أدرى بها.

جرّد قلبك، جرّد قدميك، جرّد رأسك. ثم خض غمار هذه الرحلة. تقدم خجولاً، تقرّب متوئداً ثم مرغ جبينك في التراب وأنت تقول:

---

١ - سورة الفجر، الآية ٢٣.

٢ - سورةالأنعام، الآية ٦.

٣ - سورة مريم، الآية ٣٠.

إلهي! بدأت من لا شيء وسوف أنتهي إلى لا شيء. وأنا الآن لا أملك إلا ما ملكتني إياه. كنت ومازلت وسوف أبقى عبدك. أولم يقل النبي عيسى عليه السلام:

﴿إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيّا﴾.

وكل ما أملك وهبتنيه أنت. لا أملك شيئاً من نفسي قط. كل اعتزازي هو أنني عبد لك.

يقول الإمام علي عليه السلام:-

«إلهي! كفى بي عزاً أن أكون لك عبداً وكفى بي فخراً أن تكون لي رباً. أنت كما أحب فاجعلني كما تحب».

دعني لا أغلق هذه المطيبة فعطرها الفواح يداعب النفس حقاً. زخمتي ما تزال على العود. فإن كانت نفسك بهذه النغمة مطربة استمع لعبارات من هنا وهناك في شأن العبودية.

فذو النون المصري عرّف العبودية بأنها ان نكون عباداً لله في جميع الأحوال مثلما هو ربنا في كل حال.

والحريري بدوره أشار إلى أن عباد النعمة كثرة وعباد المنعم قلة.

وجاء في الرسالة القشيرية بان العبودية هي إلقاء رؤية التعبد في مشاهدات المعبود.

أول انعكاسات الاتصال بعالم الكون:

أول قبس نور ينعكس على قلب السالك إلى الله من عالم الملكوت هو نور الرؤيا الصادقة. ولما كان الملكوت غير مادي، فإنه يرى ما يراه على هيئة مثال. والرؤيا بحاجة إلى تفسير دون شك. ولما تفتح باب الرؤيا الصادقة في وجه المؤمن يتعمق يقينه بعالم المجردات ومعرفته بالنفس والذات. لو كنتُ بصدد بيان الرؤيا الصادقة لكان يلزمنا تأليف كتاب كامل حولها ولكن قلما نجد من لم يحظ هو أو أحد أقاربه ومعارفه بنصيب من هذه الرؤيا. والملفت أنه يحدث كثيراً أن يعرض الراحلون عن هذه الدنيا في هذه الأحلام لأمور في الدنيا أو تلك التي لم يكن للذهن أدنى اطلاع عليها مما يجعلنا نجزم بأنها ليست وليدة التخيل. فكثير من الأحلام كشفت للإنسان عن قضايا مستقبلية مثلما لوحت رؤيا النبي يوسف عليه السلام، التي يتحدث عنها القرآن، إلى وقائع حدثت بعد عشرين سنة. مثل هذه الرؤيا بعضها يكشف عن حدث ما وبعضها عن بقاء الروح بعد الممات أو عن معلومات عظيمة القدر تحتفظ بها الروح عن الملكوت والملك.

يروى عن أحد أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام أنه قال في تفسير الآية:

﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا﴾.[1]

إنها تقصد الرؤيا الصادقة، فأنت عندما تستيقظ تشعر بفرح وانشراح لا سيما لو حملت الرؤيا بشرى بصفاء النفس والباطن. أما إذا لاحك منها إنذار، فلا بأس عليك فالصديق يوبخ صديقه تحذيراً أياه دون أن يفعل مثل ذلك مع الغير.

وقد روى البخاري في صحيحه أن النبي ﷺ قد فتحت له أبواب الرؤيا الصادقة قبل تلقيه الوحي.

فكلما ازدادت النفس الانسانية تحرراً من التعلقات المادية سهل على الانسان ارتقاؤه إلى الملكوت وتوسعت دائرة معلوماته وتمتعاته من العالم العلوي، فتتحول رؤياه الى مكاشفة. وإن ازدادت مراقباته بعدها تتنزل أمطار الرحمة والفيض على قلبه في يقظته، وهذه عطية لا توهب إلا لخاصة عباد الله.

جاء في صحيح البخاري:

«الرؤيا الحسنة أي الصادقة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة».

واعلم ان ما تستحصله النفس الإنسانية بتحصيل العلوم والمعارف المكتسبة والعقلية تكشفها النفس بالتزكية والسير العملي وبالمكاشفة والرؤيا الصادقة والعلم اللّدني. وإن كان احتمال الخطأ موجود في الأولى فإنه ليس كذلك في الثانية. هكذا رد الإمام الصادق عليه السلام على

---

١ - سورة يونس، الآية ٦٤.

عنوان البصري –لما طلب منه تعليمه ومدّه بالمعرفة – بأن العلم لا يستحصل بالتعلم بل هو نور يلقيه الله تعالى على قلب من يطلبه منه.

في بداية رحلة السلوك الى الله، –لما كانت النفس ما تزال تصارع معمعات الوساوس الشيطانية، وقد تكون النفس أما مرتعاً للوساوس الشيطانية أو مهبطاً للايحاءات الرحمانية – ما على السالك إلا أن ينظر فيما يرى في المنام أو يرد على قلبه مما يرد على قلوب الانام: أهو وحي وإلهام رباني أو وسواس شيطاني؟ تراني أذكر الوحي فلا أعني به ما يخص الأنبياء والمرسلين من وحي، بل وحياً من نوع آخر ذكره الرحمن في القرآن بقوله: ﴿أوحينا إلى أم موسى﴾ أو ﴿أوحينا إلى النحل﴾. وكن واثقاً أن ما يحفزك للسقوط والتخبط في أحضان الخطايا والتيهان في ملاعب الدنيا يأتيك من الشيطان وما يدعوك للارتقاء والصواب والملكوت هو من عند الرحمن.

هر ندايى كه تو را بالا كشد
آن ندايى دان كه از بالا رسد
هر ندايى كه تو را حرص آورد
بانگ گرگى دان كه او مردم درد[1]

* * *

١ – البيتان للشاعر الايراني مولوي، ومعناهما:
– «كل نداء يرتقي بك الى الأعلى، إعرف أنه نداء بلغك من الأعلى».
– «وكل نداء في الطمع يغرقك، تلقاه نداء ذئب هو بالناس يفتك».

وفي المرتبة التالية يتفتح باب المكاشفة أمام السالك. وفيه حالتان غالباً. فحال السالك لا هو يوصف بالنوم ولا باليقظة. فالشاعر العارف حافظ الشيرازي، مثلاً، هو ذاك الشاعر الملكوتي المتهجد الواله بصلاة الليل يرى أن:

سوز دل، اشک روان، آه سحر، ناله شب
همه را از اثـر لطـف خـدا مـی‌بينم[1]

وهو ذاته يعزي نفسه أحياناً مرتجزاً:

حافظا در کـنج فـقر وخـلوت شـبهای تـار
تا بود وردت دعا ودرس قرآن غم مخور[2]

وهو حافظ نفسه الذي ارتقى إلى أعلى مراتب أي انسان عظيم غير معصوم. وهنالك راح يترنم بنغمة:-

١ - معناه:

- «لوعة القلب والدمعة السائبة وآهات السحر وأنين الليل، كلها أحسبُها من آثـار لطف الله».

٢ - معناه:

- «فيا حافظ! في زاوية الفقر واختلاء الليالي الظلماء، لا تكابد الحزن مـا دامت الاوراد أدعيتك والقرآن درسك».

دوش وقت سحر از غصه نجاتم دادند
اندر آن ظلمت شب آب حياتم دادنـد
بيخود از شعشعه پر تـو ذاتـم كـردند
باده از جام تـجلى صـفاتم دادنـد[١]

وهو الذي كان يحمل مع نسيم الصباح نداءاته كالنبي سليمان ﷺ وارتقى إلى مرتبة تلقى الرد:

سـحر بـا بـاد مـى‌گفتم حـديث آرزومـندى
خبر آمد كه واثق شو به الطاف خداوندى[٢]

ذات ليلة وقد أنهكته جهود يومه لجأ إلى الفراش.. حانت ساعات المناجاة والله يرى صباحاً ان عبده غائب لم يلتحق بركب الوالهين. يبعث أحد ملائكته لايقاظه. يوقظه مبعوث الحبيب: قم، فالحبيب في انتظارك.

---

١ - معناهما:
- «ليلة أمس أنقذوني في وقت السحر من الهم، سقوني ماء الحياة في ظلمة الليل».
- «لا لجدارة مني غُدق عليّ بقبس من نور الذات، أسكروني بكأس (شراب) تجلي الصفات».
٢ - معناه:
- «أخبرت الريح سحراً بحديث الطموح، جاءني الرد: كن واثقاً بالألطاف الالهية».

ســـحرم دولت بـــيداد بـــه بـالين آمـد
گفت برخيز كه آن خسرو شيرين آمد[1]

وفي صباح آخر يتم ايقاظ حافظ تارة أخرى، وهل يمكن للواله أن يستسلم للنوم في موعد لقاء حبيبه؟!

ولكن لم تأتِهِ هذه المرة ملائكة مفوضة بايقاظه بل ملائكة حملت إليه تجلي الجمال فنادته.

أيا شمس الدين! يا حافظ القرآن، كيف لك أن ترقد في الفراش سحراً؟ وهل يكون لعبد يُستقبل بمثل هذه الحفاوة سحراً أن يغلبه النوم فـي هذا الموعد.

فيا ايها العزيز! مثلما روحك تـوّاقـة لصـاحب الأرواح فـصاحب الأرواح كذلك توّاق لك، وهو القائل:

«يحبهم ويحبونه».

فأنت قرأت دون شك في أحد الأحاديث أن منادي الحق يـنادي كل ليلة، لا سيما ليالي الجمعة، ليغدق على الخلق بالرحمة حيث يقول خاتم الانبياء والمرسلين ﷺ:

«ان لله تعالى منادياً ينادي في السحر: هل من داع فأجيبه؟ هل من

---

١ – معناه:

– «سحراً بلغني في السرير نداء العز، قال: انهض قد حضر خسرو شيرين».

خسرو: شخصية يذكر التاريخ الايراني قصة حبه لشيرين وحرمانه منها.

مستغفر فأغفر له؟ هل من طالب فأعطيه؟».

قسماً بذاته انه هو الداعي وهو المستقبل. وقد بشر المتهجدين ليلاً ببشرى لم يتلقها غيرهم. إنصت إليّ أسمعك:

﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بماكانوا يعملون﴾.[١]

ذكر الجنة موضوع يعرض له الله سبحانه وتعالى في جميع أرجاء القرآن. ولكنه يعود بعد آية التهجد وصلاة الليل لينوّه بأننا عاجزون عن نيل عظمة نعمه:

- ﴿ومن الليل سبحه وأدبار السجود﴾.[٢]
- ﴿وبالأسحار يستغفرون﴾.[٣]
- ﴿ليسوا سواء، من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾.[٤]
- ﴿واقم الصلاة طرفي النهار وزُلفاً من الليل...﴾.[٥]
- ﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾.[٦]

---

١ - سورة السجدة، الآيتان ١٦ و ١٧.

٢ - سورة (ق)، ٤٠.

٣ - سورة الذاريات، الآية ١٨.

٤ - سورة آل عمران، الآية ١١٣.

٥ - سورة هود، الآية ١١٤.

٦ - سورة الاسراء، الآية ٧٩.

- ﴿أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، إنما يتذكر أولو الألباب﴾.[١]

لا طاقة لي وحديث الحبيب وإلا فقريحتي تكتظ بألوان لا حدّ لها منه، ولكنها تكف وتكبل ذخائرها متى ما يجري الحديث عنه. فرسول الله ﷺ كان يرسل مدامعه فتتناثر لآلِئُهُ أرضاً كلما انساق الكلام عن صلاة الليل لأن «وصف العيش، نصف العيش».

فيا ايها الواله انهض ففي الأسحار يقدم شراب السقاء، شراب فيه لكل من أضناه الداء دواء. مالك ولنوم الليل؟ فما أوسع موعدنا مع النوم في القبر! مالك ولنوم الليل؟ فمالك الملك قد أعلن نفير انتظاره. مالك ولنوم الليل؟ ففي سكون الليل تهطل أمطار رحمته فتندي شفاه فتك بها عطش الفراق.

الآن وقد عرضنا لهذه الأحوال. يؤسفني أن أهمل حكاية أبي يزيد البسطامي:

بـا يـزيد آمـد شـبى بـيرون زشـهر
از خروش خـلق خـالى ديـد دهـر[٢]

لم يكن له من ضجيج المدينة وصخبها من طائل؟ فالربيع هنا والأجواء منعشة:

---

١ - سورة الزمر، الآية ٩.

٢ - معناه:

- «ذات ليلة ترك أبو يزيد المدينة، فرأى الدهر متجرداً عن ضوضاء الخلق».

مـــــاهتابی بـــود بس عـــالم فـــروز
شب شده از پر تو آن هـمچون روز[١]

فبين سكون الأسحار وهدير مياه الأنـهار وسـطوع ضـوء القـمر الوهاج وذكر محبوبه، أسكره شراب الحب فحلّقت نفسه:

شـــورشی در وی پـديد آمـد بـه زور
گـــفت يـــا رب در دلم افـــتاد شـــور
با چنين عـزت کـه در گـاه تـو راست
اين چنين خالی ز مشتاقان چراست[٢]

إلهي! النعماء وفيرة في حضرتك، قمة العظمة في أنسك، منتهى العز في عبوديتك. وا عجبي لأمر الناس أراهم ينهالون يومياً على نفوسهم بمطرقة طلب حطام الدنيا جاعلين هذا العز السرمدي وراء ظهورهم لا يأبهون له.

عزيزي القارىء! لا تلومني! اعلم أنني نأيت عن موضوعي. فشذى الأسحار الفواح وحدث صلاة الليل أثملني حتى انسكب الشراب من

---

١ – معناه:

– «كان هنالك ضوء القمر ساطعاً، الليل غدا بأنواره نهاراً».

٢ – معناهما:

– «لهفة هاجمته، فقال: يا رب! قلبي ثارت لهفته».

– «فحضرتك بمثل هذه العزة، لِمَ هي هكذا من المشتاقين خالية».

يدي. اخبرتك أن المكاشفة تحدث غالباً أثناء الأسحار.

وفي مرحلة أسمى يأتي دور كشف حجب الملك ولقاء الملكوت. فمن يبلغ هذا المقام يكون قد عرف عالم الأمر. إنه عندما ينظر الى شخص ما يرى ملكوته أيضاً وما يراه الناس في يوم القيامة يراه هو هاهنا.

من هنا رد الإمام السجاد عليه السلام على أحد أصحابه وهو يحدثه عن زحام الحجاج، ما أقل الحجيج وأكثر الضجيج! ثم مسح بيده على وجه محدثه وكشف له ملكوت الأشخاص، فصار لا يرى حوله إلا حيوانات. أمهلني أحدثك عن حكاية أخرى:

كيف كشفت الحجب؟

قلت لاستاذي العارف الكبير آية الله نجابت (قده): هـناك شـاب متقلقل توّاق للسلوك إلى الله، يرغب في لقائك. التزم الصمت هنيهة ثم قال: لا طائل منه.

كانت الأيام تمضي والشاب لا يكل من إلحاحه ويواصـل طـلبه حتى اضطرني أن أصحبه إلى مولانا العارف دون أن أستأذنه. فجلس إليه يعرض تمنياته. فأجاب:

امرك لا يصلح ببساطة. يلزمك إيثار وتضحية. فما في ذمتك مـن حقوق الناس لا يحصى. زرنا متى ما أديتها.

في اللحظة وجه الشاب ضربة إلى رأسه. وتركه أستاذي وقد تعالى بكاؤه.

كشف الشاب لي عن سره، فقال: منذ عشرة أعوام وأنا أعمل عند تاجر مفروشات. عاهدته على أن لا أخونه. أتجول في المدن القريبة وابتاع له السجاجيد والمفروشات. ولكني لم أبلغه الحقيقة في أي من معاملاتي.

الآن، وقد مر على ذلك الحدث عشرون عاماً، وقد توسد أستاذي

(رحمه الله) التراب، لم يعد ذلك الشاب يزورني ولكني لم ألاحظ أي تغيير في حياته قط.

* * *

حل أستاذي جليل القدر هذا يوماً ضيفاً في منزلي. ولما أعددت السفرة راح ينظر إلى الطعام طويلاً.

أردفت: إن لم تكن راغباً في تناول هذا الطعام فلنعد طعاماً آخر.

أجاب: بل أرغب فيه كثيراً. كنت أفكر في أن من طبخ هذا الطعام كان في أتم حالات النورانية.

أخبرته أن الطاهية لذلك الطعام هي أمي. ولما رفعنا تلك السفرة، سألتُ أمي: كيف كانت أحوالكِ اليوم.

قالت: منذ دخل هذا الرجل دارنا، صرت على حال غير حالي. رحت أبكي واسكب الدموع منذ بدأت الطبخ وحتى فرغت منه.

حكاية أخرى:

سمعت من العبد الصالح المتقي السيد مرتضى نجفي قوله: صحبت السيد القزويني في زيارة لأحد الصلحاء ولما أراد النهوض، قال ذاك العبد الصالح: أعددنا اليوم في منزلنا خبزاً وأنا أرغب أن تتناول منه. قبل السيد القزويني دعوته. ولما أُعِدت السفرة تناول منها لقمة واحدة وترك السفرة ولم يزد منه.

قال مضيفنا: لماذا لم تتناول من الطعام؟

قال: أعدت هذا الخبز سيدة حائض.

كلامه أدهش الرجل، فنهض وتقصى الأمر حتى توثق منه فأتى بخبز غيره فتناوله.

تأمل، فإن وضع الطاهي يؤثر فيما يعد من طعام فيدركه أصحاب النفوس الزكية. فكيف بطعام من حرام.[1]

فمثل هذه الأحداث لمن الكثرة حتى يمكن اعداد كتاب كامل حولها. ذكرت هاتين الحكايتين وأنا أهدف منهما استبانة أن أصحاب النفوس العظمى لا يرون ملكوت الأشخاص فقط بل يدركون حتى

---

١ - انظر كتاب «دار السلام»، المجلد الأول.

ملكوت الأطعمة الفاقدة للروح أيضاً.

فيا أيها العزيز، تشبث بأذيال التقوى فما نال هؤلاء ما نالوه إلا بها.

كنت قد ذكرت لك في هذا السياق حديثاً أقرأه عليك هاهنا ثانية لمزيد من الاعتبار:

«ما من عبد إلا ولقلبه عينان وهما غيب ويدرك بهما الغيب. فإذا أراد الله بعبد خيراً فتح عيني قلبه، فيرى ما هو غائب عن بصره».(١)

حسناً، تمعن في التفكير. كل هذه الأمور هي مسليات الرحلة. فلا تقنعن نفسك بمثل هذه الأمور، فقد تغدو هذه الأمور عينها حجباً تعرقل سلوكك بينما غاية آمالك هو الحق. حذارِ أن تسخر طاعاتك وعباداتك لبلوغ مثل هذه الغايات، بل اشكر ربك إن لم تنل مثل هذه المراتب. فإن الله لا يحبس عن عبده ما يراه بحاجة إليه.

تأمل في هذا الحديث أيضاً:

قال رسول الله ﷺ:

«لا يحزن أحدكم أن ترفع عنه الرؤيا فإنه إذا رسخ في العلم رفعت عنه الرؤيا».(٢)

---

١ – كتاب الوافي، المقدمة الأولى.

٢ – تحف العقول.

«لا حدود للروح، في الجسم»

كل من أعضاء الجسم له وظيفة يتعهد بأدائها. ويتحدد دور كل منها في الجسم بأداء وظيفته فقط، فلا يـمكنها أداء عـمل آخـر. وهكـذا الإحساس تتعهد بتكوينه الحواس. فالعين لا تسـمع والأذن لا تـرى والذوق متعذر على اليد. المعدة تعجز عن أداء وظـيفة القـلب وليس بامكان القلب أداء عمل المعدة. والكليتان أيضاً غير قادرتين على أداء عمل الرئتين، وهكذا دواليك بـقية أعـضاء الجسـم. إذاً لجـميع هـذه الأعضاء والحواس حدود يتأطر بها عملها.

ففي مملكة الجسم لا يجوز لأي من الأعضاء الخروج عن الحدود.

والآن دعنا نتساءل:

- أين تقع النفس؟
- هل تعرف موقع سكناها؟
- هل هي فيالدماغ؟ - نعم.
- هل هي في الرئتين؟ - نعم.
- هل هي في العينين؟ - نعم.

إذاً، العين ترى بفعل النفس، والأذن تسمع بفعل النفس، والساق تسير بفعل النفس، واليد تؤدي وظائفها بفعل النفس. حسناً، الآن وقد التفت الى هذه الحقيقة، إعلم أنه ليس هنالك حتى ذرة واحدة في عالم الوجود بأسره تتجرد عن وجود الله. فرزق التربة منه، ونزول الأمطار منه، وطراوة الأعشاب منه، وجمال الأزهار منه. إنه في كل مكان. فهل تراه؟

نقرأ في القرآن الكريم عن إرساله الريح:-

﴿هو الذي أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته﴾.[1]

ونقرأ أنه هو الزارع للمحاصيل:-

﴿أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون﴾.[2]

ويؤكد تعالى أنه هو منزل الأمطار:-

﴿أفرأيتم الماء الذي تشربون، أأنتم انزلتموه من المزن أم نحن المنزلون﴾.[3]

ثم ينبىء رسوله ﷺ:-

﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾.

إذاً، نرى أنه يحل في كل مكان خلافاً للممكنات فإنها تتواجد في مكان دون سائر الأماكن الأخرى، تتحكم بأمر دون أمور. فالله في

١ - سورة الفرقان، الآية ٤٨.

٢ - سورة الواقعة، الآية ٦٤.

٣ - سورة الواقعة، الآيتان ٦٨ و ٦٩.

كل مكان ومدبر الأمور كلها. ولكل من الممكنات، وبحسب التـعبير الفلسفي، حد ولا حد لله، فاينما تـيمم وجـهك تـرى آثـار وجـوده تستبطن الحجب بل أنه هو الحجاب أيضاً.

﴿يحول بين المرء وقلبه﴾.[١]

١- سورة الأنفال، الآية ٢٤.

إشارات أخرى حول معرفة النفس:

تتعهد حواس الانسان، كل بحسب دائرة وظيفتها، بإدراك أشياء من العالم الخارجي تلقائياً دون أن تتنبه إلى ذاتها. فما الذي يدرك جميع الحواس ويستوعب ذاته أيضاً. ونحن نسمي تجليات نظره إلى نـفسه «العلم الشهودي».

ومن خصائص النفس الأخرى أنها لا تكلّ ولا تعيا خلافاً لحواس الإنسان فكـلها تـصاب بـالإرهاق وحـتى الإعـياء خـلال إدراكـها المحسوسات، ولهذا تكون مـعرفتها مـحدودة. فـالعين تـرهق وتـعيا بالتمادي في القراءة ولا تقوى على الرؤية في الضوء الخافت وقد تفقد قدرتها على الإبصار بتأثير الضـوء الحـاد. الأذنـان هـما الأخـريان يرهقهما الضجيج والضوضاء ويتعذر عـليهما سـماع الأصـوات ذات الأمواج القصيرة، وقد تعرضهما للصمم الأصوات العالية الأمواج. قس على ذلك بقية الحواس أيضاً.

اما النفس الإنسانية فإنها لا تكل بحمل المعارف فقط بـل يـتسع استيعابها وتتعاظم حيويتها كلما أضيف إلى مدخورها شيء هـذا مـا نخلص إليه من كلام الإمام علي بن أبي طالب ﷺ:

«كل وعاء يضيق بما جعل فيه الا وعاء العلم يتسع».

كن واثقاً لو أن العمر الإنساني تواصل لآلاف الأعوام، وجدّ فيها في طلب العلم لكان للنفس الاستيعاب الكافي له ولازدادت حيوية ونشاطاً يوماً بعد يوم. إذاً، استطلع باطنك واكشف عن السر المكنون في معرفة النفس ثم ابدأ النظر في نفسك.

كان طريق الحرير يربط قارة أوربا بأقاصي آسيا، والقوافل تقضي وقتاً طويلاً لاجتياز هذا الطريق حتى كشف «فاسكودي كاما» عن مضيق في افريقيا وبالتالي الطريق البحري بين أوربا وآسيا قلص المدة المطلوبة إلى الثلث.

فيا عزيزي! طريق سلوكك الرئيسي هو معرفة النفس، فقد يكون أقرب إلى الحبيب من طريق معرفة الآفاق. فالنفس تكتسب المعارف من سيرها في الآفاق بنظر الحواس في العالم الخارجي بينما تخوض غمار هذه المعرفة دون وسيطِ. كما أن العودة إلى الذات والإحاطة بحقائق العالم لا تحصل إلا بعد الكشف عن قارة النفس العظمى.

إن رحلة الإنسان مع النفس هي في الحقيقة تحليقٌ، بعيد عن تجليات الوجود والمضي إلىحقيقة الوجود. فإنك لو نظرت في نفسك وعرفت ذاتك لا ترى في نفسك إلا الفقر رغم كثرة ما تحمله ولكنك تعلم أنها جميعاً من رب النفس. فتترك النفس وتنطلق منها للنظر في ربها.

هنا تفهم بأن هذا الفناء هو في الحقيقة بقاء لا تبلغه إلا بالتجرد عن الذات والنظر إلى الوجود المطلق بعيني نفسك.

هنا ترى الحياة في حياة الحي المطلق. وإذا بلغت هذه المرتبة لا تموت أبداً. فالفارّون من معتقل عالم المظاهر، المهتدون إلى عالم الوجود يتخذون الموت هزواً.

بعبارة أخرى، أقول أن السلوك رحلة من العالم الخارجي المحدود إلى العالم الباطني اللامحدود والوصول إلى حيث بدأت انطلاقتك. فأنت في سفرك في أغوار نفسك ترى، ولكن ليس بهذه العين الجسمانية، تسمع ولكن ليس بأذنيك هاتين. تملك يدين وساقين ولكن غير ما لك الآن. بل كما يحدث في الأحلام.

فنفسك كطائر الحراز، ولد في قفصه، أكل وشرب وترعرع في قفصه. فمع أنه ينظر إلى العالم الواقع خارج القفص ولكنه لا يرى اكثر من حيز منزل ما مثلاً. فهل يقارن هذا الحراز السجين بشهباز كأنه يطوي السماء بين جناحيه، بنى عشه على قمة الجبال؟!

فاللائذون في هذا العالم المادي لساعات بالاختلاء بأنفسهم في مركبة الأنس، الذين اهتدوا (هكذا) إلى الباطن، كأنهم حراريز أوجدوا ثغرات في أقفاصهم ينفذون منها بين فينة وأخرى إلى أقطار السماء فاستأنسوا بالطيران ثم عادوا إلى أقفاصهم. إنهم لا يكابدون مرارة عدم إجادة الطيران يوم تفتح الأبواب في وجوههم. فأبواب هذه الأقفاص سوف تتفتح يوماً في وجوههم. فأبواب هذه الأقفاص سوف تتفتح يوماً ما لا محالة. فما أتعس طائر يجد باب قفصه مفتوحاً ولكن دونه الطيران.

سماء النفس لعلى سعة عظيمة. فاجهد لكي لا تنسى ما حققته في

تمارين التحليق فيها. إنك تطوي السماء والأرض والبحار تحت جناحيك وريشك. فاحذر هزو عالم الطبيعة بك ومنعها تحليقك واقناعك بملذات الدنيا.

ما أسعد حظ من لاذ بريعان نَفَسٍ دائمي بذكر الحبيب والحلول في دياره. فأنت قرأت قوله تعالى:-

﴿أزلفت الجنة للمتقين﴾.[1]

فبذور أشجار الجنة احتوتها منذ الآن نفوس السالكين والعرفاء في هذه الدار. وبراعم هذه البذور قد انتشت من نواتها منذ الآن، فتفوح رائحة رياض الجنة من كلامهم.

كما قرأت قوله تعالى:

﴿وإنّ جهنّم لمحيطةٌ بالكافرين﴾.

وهذه الإحاطة تشمل وضع الإنسان في هذه الدار أيضاً. فمن استحقها يغدو حطبها حيث أن ﴿وقودها الناس﴾. ومن كلام هؤلاء أيضاً يتصاعد دخان سعيرها.

١- سورة الشعراء، الآية ٩٠.

النفس الإنسانية تهتدي بهدى الحق تعالى

قال تعالى:-

﴿ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها﴾.[1]

تفيد الآية أن النفس مجبلة على أن تحب المحاسن وتنفر من المساوىء. وقد تحدثنا عن كون هذه الحالة من الأمور الكامنة في الفطرة الإنسانية. وسوف نحاسب عليها غداً: كنت تعلم أن الكذب مذموم فلم تنكرت للصدق؟ كنت واثقاً من حسن العدالة، لماذا ظلمت إذاً، لا سيما وان الشريعة المنزلة عن طريق الأنبياء قد انسابت هي الأخرى في مجرى توجهات الفطرة.

جاء في تفسير مجمع البيان خلال العرض للآية الآنفة، عن الإمام جعفر بن محمد الصادقعليه السلام قوله:

«بيّن لها ما تأتي وما تترك».

فهذه النفس إن امتطت جواد الشرع والتقوى منذ البلوغ تزداد شباباً وحيوية على مر الأيام.. فتكون شجرة طيبة زاخرة بأزهارها، وارف ظلها، غنية بثمارها، لا تعرف للعجز معنى حتى لو كان صاحبها في

١- سورة الشمس، الآيتان ٧ و ٨.

عمر الشيخوخة والإنهاك بحسب ما قال تعالى:

﴿ومن نعمره ننكسه في الخلق، أفلا يعقلون﴾.(١)

فالشيخوخة والانهاك يعتريان الجسم في عالم خلقه لا في عالم أمره. فإن كان عالم أمره موجه على مر الحياة نحو الله، فإنه يزداد شباباً ساعة بعد ساعة، وعكس ذلك صحيح أيضاً. فإن انكب على الدنيا يتعمق طمعه وجشعه ساعة بعد ساعة فيغفل عن قرب أجله. وهو في كل لحظة يزداد استسلاماً لقيود الثروة والتعلقات الأخرى.

قال رسول الله ﷺ:

«نفس ابن آدم شابة ولو التفت ترقوتاه من الكبر الا من امتحن الله قلبه للتقوى. وقليل ما هم».

كما قال ﷺ:

«قلب الشيخ شاب في حب اثنتين: في حب الحياة وكثرة المال».

واعلم أن للإنسان في بداية سلوكه إلى الله رحلة صراع مع النفس الأمارة، مع نفس شغُلها الشاغل الأمر بالسوء، لا تستثني من ذلك أي شخص كان، ولو كان النبي يوسف عليه السلام:-

﴿إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي﴾.(٢)

فكلما كان الشخص أكثر تقبلاً لأحكام هذه النفس ازدادت تحكماً به. والله الغفار لا يحبس توبته عن الأشخاص أبداً. ولكن.. لماذا

١- سورة يس، الآية ٦٨.

٢- سورة يوسف، الآية ٥٣.

ينحسر عدد التائبين في عمر متقدم؟ السبب هو أن النفس الأمارة تقوى وتغلظ حتى مثل هذه المرحلة من العمر، وقلما يبرز البطل الفذ الذي يتيسر له قهرها في مثل هذا الوضع.

أما إذا ضرب وسواس هذه النفس عرض الحائط، فإنه يوهن رويداً رويداً حتى تتحول هذه النفس إلى نفس لوامة تعرضك للوم والتنكيل مع كل هفوة من هفواتك. تأتي عليك بالندم لكل ذنب تقترفه. فلهذه النفس قدسية جعلت الله العزيز القدير يحلف بها في كتابه المجيد حيث قال:-

﴿فلا أقسم بالنفس اللوامة﴾.[1]

ونجد فيما أوصى به نبينا الكريم محمدﷺ ابن مسعود:-

«يا أبن مسعود! أكثر من الصالحات والبر، فان المحسن والمسيء يندمان. يقول المحسن: يا ليتني ازددت من الحسنات، ويقول المسيء: قصّرت. وتصديق ذلك قوله تعالى، ولا أقسم بالنفس اللوامة».

ولما ترسخت هذه النفس لديك تبدأ شمس النفس المطمئنة بالطلوع تدريجياً حتى تشرق في آفاق وجودك، وتنيرها، وتكسبك جدارة اللقاء في جنة النعيم.

يقول تعالى:-

﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية، فادخلي في

١- سورة القيامة، الآية ٢.

عبادي وادخلي جنتي﴾.[1]

إنها الآيات الأخيرة من سورة الفجر. وما أعذب لحنها لو تتردد في مسامع نفسك في فجر قيامتك وهو وقت احتضارك. ألا تعرف ما هو لقاء الحبيب. نقرأ في القرآن لمئات المرات: ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار﴾، ولكن لك في هذا الموعد أيضاً «جنة» فأنت إن كنت تطلب الحور العين تجدها في تلك الجنات، وإن كان لقاء المحبوب غايتك فميقاته هاهنا.

إلهي! ارزقنا نعمة طرب نفوسنا على ألحان هذه النغمة في لحظة إقلاعنا عن مدرج هذه الدنيا، ونحن نغادر هذه الدار وإن كنا نكابد آلاماً شديدة.

احرص أن لا تترك نفسك وشأنها، لا تتوان عن مراقبتها. فكما تعتني بجسمك وبدنك فإنها هي الأخرى بحاجة لتربية وتغذية وارتقاء:-

«إن للجسم ستة احوال الصحة والمرض والموت والحياة والنوم واليقظة وكذلك الروح، حياتها علمها، وموتها جهلها، ومرضها شكها، وصحتها يقينها، ونومها غفلتها ويقظتها حفظها».

١- سورة الفجر، الآيات ٢٧ - ٣٠.

أطروحة معرفة النفس:

﴿والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها والنهار إذا جلاها والليل إذا يغشاها والسماء وما بناها والأرض وما طحاها ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها. قد افلح من زكاها وقد خاب من دساها﴾.

يتكرر على أسماعنا قسم الله في الكثير من آيات القرآن، لا سيما في بداية السور: قسم، قسمان، ثلاثة. ولكن لم تذكر مثل هذه المجموعة في أي موقع من القرآن. هذا ما يوحي لنا بأن الموضوع المطروح تباعاً لعلى أهمية وعظمة كبرى. إنه سبحانه وتعالى يقول بعد كل هذه العبارات: **﴿قد أفلح من زكاها﴾** و**﴿قد خاب من دساها﴾**، أي أهملها فتركها تتخبط في لجج التلوثات، ولم يجهد في تزكيتها. فذلك له الفلاح السرمدي وهذا نصيبه اليأس الأبدي. والملفت أنه أشار قبل هاتين العبارتين إلى أنه **﴿الهمها فجورها وتقواها﴾**. أجل، لقد أودع في فطرتها طريق الفلاح والشقاء. واطلاع الانسان على حسن وسوء الأمور يثقل مسؤوليته. وإنه لحري بالإنسان أن لا يتهاون مع مثل هذه المسؤولية الجسمية، فيسلم نفسه لما يمرغها في وحل التلوثات بالفجور والمآثم. أحسن التفكير في هذا.

قال الإمام علي ﷺ:

«استدراك فساد النفس من أنفع التحقيق».

وبعد اطلاعك على المساوىء، أدخل معها في معترك الجهاد والمواجهة، لتزيح عن قلبك تمنيات النفس وتمنعها من الانحراف والزلل. لا تغفل للحظة في هذا الجهاد الأكبر عن مرامي الشيطان. صدّها باستمرار. لا تدع الزمام يفلت من يدك.

قال الامام علي ﷺ:-

«إملكوا أنفسكم بدوام جهادها».

معبرك إلى حيث صلاح نفسك وسلامتها يمر من طريق التقوى. فإن اجتزته فإنك لبالغ الصراط المستقيم باستجابتك لنداء الالهام الالهي بما فيه صلاحك. إستنصح بقول الإمام علي ﷺ حيث يقول:

«إن تقوى الله دواء داء قلوبكم وظهور دنس أنفسكم».

ولكي لا تفشلن في جهادك وأنت تخوض غمار هذه المعركة بل تودع ساحة سباق الدنيا متقدماً منتعشاً بنشوة الانتصار، أولِ النصائح والإرشادات التالية جُل اهتمامك:

- «أعون شيء على صلاح النفس القناعة».
- «كيف يستطيع صلاح نفسه من لا يقنع بالقليل».
- «ينبغي لمن أراد اصلاح نفسه واحراز دينه ان يتجنب مخالطة أبناء الدنيا».
- «من لم يهذب نفسه لم ينتفع بالعقل».

- «من سامح نفسه فيما يحب ابقته فيما يكره».
- «لا ترخص لنفسك في مطاوعة الهوى وايثار لذات الدنيا. فتفسد دينك ولا يصلح وتخسر نفسك ولا تربح».
- «آفة النفس الوله بالدنيا».
- «رأس الآفات الوله باللذات».

* * *

فيا عزيز النفس!

تشبث في رحلتك بعرى رصينة تأمن تمزقها أثناء سلوكك وليست ثمة مثل هذه العرى سوى فضل الله.

جاء رسول الله ﷺ رجل يسمى (مجاشع) فسأله عن الطريق إلى معرفة الحق، فأشار عليه ﷺ بأنه طريق معرفة النفس. فعاد الرجل يسأل فكيف تتم معرفة النفس، فاكد له ﷺ بأنها تتم بطلب العون من الله للتوصل إلى مثل هذه المعرفة.[1]

تشبث بعروته واطلب منه أن يوفقك لنيل هذه المعرفة. لا اعرف إلى أي حد وفقت لأهديك إلى استهلال طلبك في معرفة النفس، ولكن إعلم أن هذه الموضوعات ذوقية نوعاً ما وليست معرفية بحتة.

ولتطمئن إلى ما أقول استمع إلى ما قاله صدر المتألهين (قده) في

١- انظر بحار الأنوار، المجلد ٧٠، ص٧٢.

هذا السياق:-

«والحق أن العلوم أذواق ومعارف المقامات لا يسع في جلابيب الحروف والكلمات على ما هو حقه ومن لم يذق لم يعرف».

ولما كان الكلام والكتابة ينسابان من نبع النفس، فإني لشديد الامتنان لكم إن رافقتموني لساعات من عمركم، فإن شع نور من هذا الكلام على نفوسكم اعكسوا وميضاً منه في طريقي، فإني لشديد الحاجة إلى دعائكم.

اتمم رحلتي هذه معكم بعد رحلتي الاولى في أجواء التجلي في تفسير الآية. ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق﴾ وبعد الفراغ من جولتنا الثانية في رحاب التجلي وتفسير الآية: ﴿وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾، نحط الرحال هنيهة لنواصل جولتنا الأخيرة إن شاء الله في تفسير الآية:

﴿أولم يكف بربك انه على كل شيء شهيد﴾.

اتركك لأعود إليك، فانتظرني. استودعك الله.

«الفهرس»